تقريب الظلال

"جزء المجادلة"

تقريب: عبد المعين الطلفاح

٢٠٢٠/١٤٤٢

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد.

فلما كان تفسير: **(في ظلال القرآن)** لسيد قطب فريداً من نوعه في هذا العصر، ضمَّنه سيِّد زياداتٍ ولفتاتٍ لم توجد في غيره من التفاسير القديمة والحديثة، جال فيه في رحاب السنة ومقاصدها، وأودع فيه تجربتَه الحية في عالم الإيمان، بأسلوب أدبي رفيع، يأسر القلب ويجذبه، ويرتقي بالمشاعر؛ لتتناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة؛ ولمَّا رأيتُه -رحمه الله- قد أطال في بيان ذلك وعرضه؛ عزمت على تقريبه للقراء، دون المساس بالأفكار التي يريد سيِّد إيصالها لهم، فكان أول إخراج لهذا المشروع هو هذا الجزء **(جزء قد سمع)**.

والله وحده المسؤول أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، ويعين على إتمامه وكماله.

عبد المعين الطلفاح

الدوحة: ٢٠٢٠/٩/٦

سورة المجادلة

تطالعنا هذه السورة على الحركة الهائلة التي قام بها الإسلام في بناء النفوس، التي تعدُّ لبناء المجتمع الإسلامي، والدولة المسلمة، وتقوم على منهج الله في الأرض، تفهمُه وتحققُّه، ثم تنقلُه إلى أطراف الأرض في صورة حية متحركة، لا في صحائف وكلمات، ولقد كان المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم ناسًا من الناس، منهم السابقون من المهاجرين والأنصار، الذين نضج إيمانُهم، واكتمل تصورُهم للعقيدة الجديدة، حتى وصلوا بها إلى حقيقة وجودهم، وحقيقة هذا الوجود الكبير من حولهم؛ فأصبحوا بها طرفًا من قدر الله في الكون، لا يجدون في قلوبهم شيئًا إلا الله؛ ولكن أولئك السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد؛ حيث كان فيها من لم يتلقَ من التربية الإسلامية القسط الكافي، ولم يتنفس في الجو الإسلامي فترة طويلة، وكان بينهم من دخل فيها من المنافقين على دخلٍ في القلوب، وتربصٍ بالفرص، وذبذبةٍ بين المعسكر الإسلامي، والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين؛ ولذا اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكبير المقدر لها في الأرض جهودًا ضخمة، وصبرًا طويلًا، وعلاجًا بطيئًا، في صغار الأمور وفي كبارها.

سورة المجادلة تطالعنا على طرف من تلك الجهود الضخمة، وعلى أسلوب القرآن في بناء تلك النفوس، وعلاج العادات التي نشأت عليها، أو الأحداث والنزوات التي تطرأ عليها؛ علاجًا يليق بالجماعة التي تنضوي تحت كنف الله، وتنتسب إليه، وتؤلف حزبه، وترفع لواءه؛ لتعرف به في الأرض جميعًا؛ فتبدأ السورة بذكر حادثة وقعت لأسرة مغمورة في المجتمع المسلم، تدخلت فيها السماء لتقرر حكم الله فيها، وهي صورة تملأ القلب بعطف الله وقربه، ورعايته لتلك الجماعة التي يصنعها على عينه، ويشعرها بوجوده في أخص خصائصها، وأصغر شؤونها، وفي هذا السياق تبين السورة أن أعداء هذه الجماعة –التي تعيش في كنف الله– مكتوب عليهم الكبت في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، وأن نجواهم التي يتناجون في خلواتهم لتدبير المكايد للمسلمين مسجلةٌ، وأن الله آخذهم بها ومعذبهم عليها، ثم تنهى السورةُ المسلمين عن التناجي بغير البر والتقوى، وتأخذهم بأدب السماحة وبالطاعة في مجلس رسول الله ﷺ ومجالس العلم والذكر، كما تأخذهم بأدب السؤال والحديث مع الرسول ﷺ، أما بقية السورة فتنصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود، ويتآمرون معهم، ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين، وتبين أن الله كتب على من يحادون الله ورسوله أنهم في الأذلين، وأنهم الأخسرون؛ تهوينًا لشأنهم الذي

كان بعض المنتسبين إلى الإسلام يستعظمه، فيحافظ على مودته معهم، وفي ختام السورة تجيء الصورة الوضيئة لحزب الله، التي كان يمثلها السابقون من المهاجرين والأنصار؛ تختم بها السورة كي ينتهي إليها أولئك الذين ما زالوا بعدُ في الطريق ﴿**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...**﴾.

﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)**﴾ [المجادلة: ١ - ٤]، كان الرجل في الجاهلية إذا ما غضب من امرأته لأمر ما؛ قال لها: أنت علي كظهر أمي، فتحرم عليه بذلك، ولا تطلق منه، وتبقى كذلك، لا هي امرأته فيصلها، ولا هي حرمت عليه فتتزوج بغيره، وبقي الأمر كذلك حتى وقع في الإسلام مع خويلة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت ﷺ، فجاءت خولة رسولَ الله ﷺ تشتكي إلى الله سبحانه؛ فأنزل الله في ذلك قرآنًا؛ بيَّن فيه حكم الظهار وحقيقته، وقد روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت: فيَّ -والله- وفي أوس بن صامت أنزل الله عز وجل صدر سورة المجادلة قالت: كنت عنده، وكان شيخا كبيرًا، قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل علي يومًا فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي، فإذا هو يريدني على نفسي، قالت: فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت؛ حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ﷺ ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه»، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سري عنه فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك»، ثم قرأ علي: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ**

تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] إلى قوله: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [المجادلة: ٤]، فقال لي رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فليصم شهرين متتابعين»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «فليطعم ستين مسكينا، وسقًا من تمر»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعرق من تمر»، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرا»، قالت: ففعلت[1].

هذا هو الشأن الذي افتتحت به سورة من سور القرآن، كتاب الله الخالد، وهذا هو الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله ﷺ والمرأة، فأنزل فيه حكمه من فوق سبع سماوات، وأعطى المرأة حقها، وأراح بالها، ورسم للمسلمين الطريق في مثل هذه المشكلة العائلية اليومية! وإنه لأمر عجيب أن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها، حاضر شؤونها، معنيٌّ بمشكلاتها اليومية، مستجيبٌ لأزماتها العادية، وهو الله... الكبير المتعال، العظيم الجليل، القهار المتكبر، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الغني الحميد، ثم قرر سبحانه أصل القضية، وعلاجها من أساسها فقال: ﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾** إن الظهار قائم على غير أصل، فالزوجة ليست أمًّا للزوج، والأم هي التي ولدت، ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أمًّا بكلمة تقال، وإنها لكلمة منكرة مزورة ينكرها الواقع، ومع ذلك كله؛ فإن الله ﴿**لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾** لما سلف من هذه الأمور، وبعد أن بينت السورة أصل الظهار وحقيقته ونكارته؛ ذكرت الحكم القضائي على من أوقعه فقالت: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾** فمن أراد أن يعود إلى الوطء الذي حرمه على نفسه بالظهار؛ فعليه تحرير رقبة من قبل العودة إلى حله، وهذه الكفارة واعظ بعدم العودة إلى الظهار الذي لا يقوم على حق، ولا معروف ﴿**ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾** وقد وعظكم به من هو قائم على أموركم بخبرته

---

(١) أحمد، **مسند أحمد**، ٣٠٢/٤٥، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

وعلمه ﴿وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ثم يتابع الحكم بيانًا فيقول: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ ثم يعقب على هذا بالبيان بقوله: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهم مؤمنون! ولكنَّ هذه الكفارات وما فيها من ربط أحوالهم بالله مما يحقق الإيمان، ويجعل له سلطانًا بارزًا في واقع الحياة، وتلك الأحكام والكفارات ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أقامها ليقف الناس عندها لا يتعدونها، وهو يغضب على من لا يرعاها ولا يتحرج دونها، ﴿وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ بتعديهم، وعدم إيمانهم، وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين، وهذه العبارة الأخير: ﴿وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ يجعلها القرآن أيضًا قنطرة للحديث عمن يحادّون الله ورسوله فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)﴾ [المجادلة: ٥، ٦]، مقطع السورة الأول كان صورة من صور الرعاية والعناية بالجماعة المسلمة، وهذا المقطع الثاني صورة من صور الحرب والنكاية للفريق الآخر، فريق الذين يحادون الله ورسوله، ولا يقفون عند حد الله ورسوله، بل في الحد الآخر المواجه، وهو أمر فظيع قبيح، أن يقف المخلوق موقفًا يتحدى به خالقه ورازقه؛ ولذا استحق أولئك المتبجحون بموقفهم ما استحقه الذين من قبلهم: القهر والذل ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، وموقفهم ذلك لم يكن عن جهل، ولا عن غموض في الحقيقة؛ بل لقد اتضحت لهم الحقيقة، وعلموها بآيات الله البينات ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، فكان جزاء تبجحهم هذا المهانة على رؤوس الجموع يوم القيامة ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ وإن كانوا قد نسوا هذا المصير؛ فقد ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يند عنه شيء، ولا يغيب عنه خاف، ثم يستطرد السياق من تقرير حقيقة: ﴿وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إلى رسم صورة حية من هذا الشهود، تمس أوتار القلوب فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ [المجادلة: ٧]، فبعد أن تقرر هذه الآيات علم الله الشامل لما في السماوات، وما في الأرض على إطلاقه؛ تقرُب من ذوات المخاطبين، وتهز قلوبهم، ثم تتركها

وجلةً ترتعش مرة، وتأنس أخرى فتقول: ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...**﴾ فحيثما اختلى ثلاثة فالله رابعهم، وحيثما اجتمع خمسة فالله سادسهم، وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك، إنها حالة لا يثبت لها قلب، ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز، في محضر جليل رهيب، محضر الله: ﴿**هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا**﴾، ثم تأتي لمسة أخرى تُرجف القلوب وتزلزلها، فما يُسِرُّه المتناجون، وينعزلون به ليخفوه؛ سيعرض على الأشهاد يوم القيامة، وينبئهم الله به في الملأ الأعلى في ذلك اليوم المشهود ﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، وهذا التقرير تمهيد لتهديد المنافقين، الذين كانوا يتناجون فيما بينهم بالمؤامرات ضد رسول الله ﷺ، وضد الجماعة المسلمة بالمدينة، مع التعجيب من موقفهم المريب:

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)**﴾ [المجادلة: ٨] توحي هذه الآيات أن خطة رسول الله ﷺ مع المنافقين كانت النصح بالاستقامة، والنهي عن المؤامرات التي كانوا يدبرونها مع اليهود في المدينة، وتوحي أن المنافقين لم يستجيبوا لهذا النصح؛ بل استمروا في خطتهم اللئيمة، وفي التدبير السيء للجماعة المسلمة، وتوحي بأن بعضهم كان يلتوي في صيغة التحية؛ فيحورها إلى معنىً سيئ خفي، كأن يقولوا كاليهود: السام عليكم، وكانوا يقولون وهم على هذه الحال: لو كان نبيًا حقًا لعاقبنا الله على قولنا هذا، وظاهرٌ من سياق السورة أن الله قد أخبر رسوله ﷺ بما كانوا يقولونه في أنفسهم، وفي مجالس مؤامراتهم؛ فالله قد سمع للمرأة المجادلة، وأن ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم... وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿**حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ وهذا كله تصديق وتطبيق لحقيقة علم الله بما في السماوات وما في الأرض، وحضوره لكل نجوى، وشهوده لكل اجتماع، الشيء الذي يوقع في نفوس المنافقين أن أمرهم مفضوح، كما يوحي للمؤمنين بالاطمئنان والوثوق.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)**﴾ [المجادلة: ٩، ١٠]، يبدو من هذه

الآيات أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامي، كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور، ليتناجوا فيما بينهم، ويتشاوروا بعيدًا عن قيادتهم، الأمر الذي لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية، وروح التنظيم الإسلامي، التي تقتضي عرضَ كل رأي، وكل اقتراح على القيادة ابتداءً، وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة، كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ما قد يؤدي إلى البلبلة، وما يؤذي الجماعة المسلمة –ولو لم يكن قصد الإيذاء قائمًا في نفوس المتناجين– ولكن مجرد إثارتهم للمسائل الجارية، وإبداء الآراء فيها على غير علم؛ قد يؤدي إلى الإيذاء، وإلى عدم الطاعة؛ فجاء هذا النداء لهم من الله بالصفة التي تربطهم به ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ ينهاهم فيه عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ويبين لهم الموضوعات التي يتناجى بها المؤمنون ﴿**وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾ البر: الخير عامة، والتقوى: اليقظة والرقابة لله سبحانه، وهي لا توحي إلا بالخير، ثم نفَّرهم سبحانه من التناجي والمسارة خفية عن الجماعة المسلمة؛ لأن أجواء الانعزال بالحديث تبث الحزن والتوجس في قلوب المسلمين، وتخلق جوًا من عدم الثقة، وإن الشيطان يغري المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم، ويدخلوا إليها الوساوس والهموم ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ ولكن الله يطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد ﴿**وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ وقد وردت الأحاديث النبوية بالنهي عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة، وتزعزع الثقة بين المؤمنين، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»، فأما حيث تكون هناك مصلحة في كتمان سر، أو ستر عورة، في شأن عام أو خاص، فلا مانع من التشاور في سر وتكتم، وهذا يكون عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة، ولا يجوز أن يكون تجمعًا جانبيًا بعيدًا عن علم الجماعة؛ فهذا الذي نهى عنه القرآن، ونهى عنه الرسول ﷺ، وهذا هو الذي يفتت الجماعة، أو يوقع في صفوفها الشك وفقدان الثقة، وهذا هو الذي يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا، ووعد الله قاطع في أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد في الجماعة المؤمنة، لأن الله حارسها وكالئها، ولن يضر الشيطان المؤمنين ﴿**إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ وقد وعد الله بحراسة المؤمنين ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**

﴿١١﴾ [المجادلة: ١١]، هذه الآية تحض على الإفساح للقادم ليجلس، كما تحض على إطاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع، وهذا الأمر يجيء من القائد المسئول عن تنظيم الجماعة، لا من القادم، وإن ما ورد في سبب نزول هذه الآية، وأن لها علاقة واقعية بالمنافقين؛ يجعل بينها وبين الآيات قبلها أكثر من ارتباط واحد في السياق، قال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الجمعة، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سُبقوا إلى المجالس؛ فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي ﷺ عليهم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك؛ فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم؛ فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم؛ فشق ذلك على النبي ﷺ؛ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: «قم يا فلان، وأنت يا فلان» فلم يزل يقيمهم بعِدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر؛ فشق ذلك على من أُقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم؛ فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء! إن قومًا أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب من نبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلًا يفسح لأخيه» فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعًا، فيفسح القوم لإخوانهم.

إن الغرض هو إيجاد الفسحة في النفس قبل إيجادها في المكان، ومتى ما رحب القلب؛ استقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة، فأفسح لهم في المكان عن رضىً وارتياح، وقد استجاش القرآن شعور المؤمنين مع هذا التكليف فوعد المفسحين في المجالس بفسحة من الله وسعة فقال: ﴿**فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ**﴾، ووعد الناشزين الذين يُرفعون من المكان، ويُخلونه طاعة لأمر رسول الله ﷺ برفعة في المقام: ﴿**وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ**﴾، وبهذه التربية التي يأخذ الله المؤمنين بها؛ يعلمنا أن الدين ليس بالتكاليف الحرْفية، ولكنه تحول في الشعور، وحساسية في الضمير.

ثم تأتي الآيات فتطالعنا على لون آخر من ألوان الجهود التربوية التي بذلك لإعداد هذه الجماعة المسلمة في الصغير والكبير، من شئون الشعور والسلوك فتقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ**

الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾ [المجادلة: ١٢، ١٣]، يبدو من الآيات أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله ﷺ؛ ليحدثه كل فرد في شأنٍ يخصه، مع عدم التقدير لمهام رسول الله ﷺ الجماعية، وعدم الشعور بقيمة وقته، وبجدية الخلوة به، وأنها لا تكون إلا لأمر ذي بال؛ فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مالِ الذي يريد أن يخلو برسول الله ﷺ، في صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة فقال: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً...**﴾ وقد ورد أن من عمل بهذه الآية علي بن أبي طالب ﷺ، ثم لمَّا شق الأمر على المسلمين، وشعروا بقيمة الخلوة التي يطلبونها من رسول الله ﷺ؛ خفف الله عنهم، ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف، وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب: ﴿**فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...**﴾.

ثم يعود السياق للحديث عن المنافقين، فيحمل عليهم حملة شديدة، تناسب الشر والفتنة التي يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين اليهود، ويصور فيها بعض أحوالهم ومواقفهم، ويتوعدهم بافتضاح أمرهم، وسوء مصيرهم فيقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)**﴾ [المجادلة: ١٤ – ١٩]، تدل الآيات وهي تشن هذه الحملة على المنافقين المتآمرين مع اليهود على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت؛ حتى خافها المنافقون، واضطروا عند مواجهة رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الحلف الكاذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال، يتقون بتلك الأيمان ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم ﴿**اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً**﴾ بذلك يستمرون في دسائسهم للصد عن سبيل الله، والله يتوعدهم مرات فيقول: ﴿**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً**﴾... ﴿**فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**﴾... ﴿**لَنْ تُغْنِيَ**

عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾، وقد استحقوا كلَّ ذلك الوعيد بعد أن تأصَّل النفاق في كيانهم، حتى إنه ليصاحبهم إلى يوم القيامة، فتراهم في حضرة الله ذي الجلال **﴿يَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾** وهو الذي يعلم خفايا القلوب وذوات الصدور، وهم مع ذلك **﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ﴾**؛ فيدمغهم الله بالكذب الأصيل الثابت فيقول: **﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾**، وقد صاروا لذلك بعد أن استولى عليهم الشيطان **﴿فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾**؛ ففسدت قلوبهم، وتمحضت للشر **﴿أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ﴾** الذي يقف تحت لوائه، ويعمل باسمه، وينفذ غاياته **﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾**.

ولمَّا كان المنافقون يأوون إلى اليهود؛ شعورًا منهم بأنهم قوة تخشى وترجى؛ أيأسهم الله منهم، وجاء بالوعد الصادق لعباده المؤمنين بأنه كتب على أعدائه الذلة والهزيمة؛ على الرغم مما قد يبدو أحيانًا من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾** [المجادلة: ٢٠، ٢١]، وكان ما وعده الله؛ فدانت البشرية لهذه العقيدة بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد، وظلت هي المسيطرة بصفة عامة رغم عودة الإلحاد إلى بعض بقاع الأرض، وعلى المؤمن أن يتعامل مع وعد الله هذا على أنه الحقيقة الواقعة، وإذا ما خالف الواقعُ هذه الحقيقة في جيل محدود، أو في رقعة محدودة، فهو الواقع الباطل الزائل، الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة، لعلها استجاشة الإيمان لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم.

وفي الختام تأتي المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان، وتضع الميزان الدقيق للإيمان في النفوس: **﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾** [المجادلة: ٢٢]، فلا يمكن أن يجمع إنسان في قلب واحد وُدَّيَن: وُدًّا لله ورسوله، ووُدًّا لأعداء الله ورسوله، فإما إيمان، أو لا إيمان، أما هما معًا فلا يجتمعان، وروابط الدم والقرابة تراعى في الصحبة بالمعروف للوالدين ونحوها، أما عند الإيمان والمحادة، والحرب والخصومة؛ فإن تلك الأواصر تتقطع،

ولذا قتل أبو عبيدة أباه يوم بدر، وهمَّ الصديق بقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم، متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة، ولولا أن الله غرس الإيمان في قلوب أولئك القوم بيده؛ لما استطاعوا فعل ذلك فالله ﴿**كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾ ثم إنه سبحانه أعطاهم جزاء ما تجردوا من كل رابطة وآصرة ﴿**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيها**﴾ وهم في مقام عال رفيع، ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ رضيت نفوسهم هذا القرب، وأنست به، واطمأنت إليه، ﴿**أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ**﴾ فهم جماعته، المتجمعة تحت لوائه، المتحركة بقيادته، المهتدية بهديه، المحققة لمنهجه، الفاعلة في الأرض ما قدره وقضاه، فهي قدر من قدر الله ﴿**أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون؟ وهكذا تقرر الآية أن من انحاز إلى حزب الله، ووقف تحت راية الحق؛ فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله، لا يفرقهم نسب، ولا وطن، ولا عصبية، العقيدة تجمعهم، وتؤلف بينهم، العقيدة وحدها لا غيرها!

سورة الحشر

سورة الحشر سورة مدنية، نزلت في حادثة إجلاء بني النضير، في السنة الرابعة للهجرة، بعد معركة أحد، وقبل معركة الأحزاب؛ نزلت تصف حادث الجلاء، وتذكر سبب وقوعه، ثم تعقب عليه بطريقة القرآن في التعقيب على الأحداث، والتربية بها.

مما يذكر عن سبب الحادث كما جاء في السير؛ أن رسول الله ﷺ قد ذهب في نفر من أصحابه إلى بني النضير، يستعينهم في دفع دية قتيلين، فاستقبلته اليهود بالبشر والترحاب، ووعدوه بما طلب؛ ثم تآمروا بينهم على اغتياله ﷺ؛ فأطلعه الله تعالى على ما بيَّتت يهود؛ فنهض من بينهم ﷺ، ثم أرسل إليهم محمد بن مسلمة ﷺ أن اخرجوا من بلادي، وأمهلهم عشرة أيام، ومن وجده بعد ذلك ضرب عنقه، وذلك منه ﷺ عملاً بقاعدة الإسلام في العهود ونقضها: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)**﴾ [الأنفال: ٥٨، ٥٩]، وتهيَّأ ﷺ لحربهم، وأخذت بنو النضير تتهيَّأ للجلاء؛ لعلمها أنه خانت ميثاق الصحيفة، فتدخل رأس المنافقين: عبد الله بن سلول، وراسلهم: أن اثبتوا ولا تخرجوا، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم؛ فتحصنت يهود في الحصون، وأرسلت إلى رسول الله ﷺ: إنا لن نبرح دارنا؛ فأصنع ما بدا لك؛ فكبر رسول الله ﷺ، وكبر أصحابه، وقال: «حاربت يهود»، وبعد العشرة أيام؛ حاصرهم رسول الله ﷺ، وحرَّق بعض نخيلهم وقطَّعه؛ فاعترضت عليه يهود، ودام الحصار إلى أن أيقنت يهود خذلان المنافقين لهم، ودبَّ الله الرعب في قلوبهم؛ فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يخرجوا من المدينة، فوافق على أن لهم دماءهم، وما حملت إبلهم؛ إلا السلاح؛ فأخذوا يهدمون بيوتهم التي احتموا بها، وخرجوا إلى أذرعات الشام، ومنهم من سكن خيبر، وأنزل الله في ذلك سورة الحشر، تذكر أحداث الجلاء، وما جرى خلاله، ثم تعقب عليها، وتربي به الجماعة المسلمة في المدينة، والأجيال من بعدها.

افتتحت سورة الحشر بالتسبيح، واختتمت كذلك بالتسبيح، تسبيح الوجود كله لله تعالى، ثم قصَّت علينا إخراج بني النضير من ديارهم، وإعطائها للمؤمنين المسبحين بحمد الله، الممجدين بأسمائه الحسنى.

أول مقطع في السورة يذكر الحادث الذي نزلت فيه السورة ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ**﴾ جاءت صيغة التعبير في الآية تقرر أن الله تعالى هو الذي تولى هذا الإخراج، من غير ستار لقدرته من فعل البشر، وبيَّن أنه ساق المُخرجين للأرض التي منها يُحشرون، وكأنه يقول: لن تكون لأولئك المُخرجين عودةٌ إلى الأرض التي أخرجوا منها! ثم إن الله تعالى أكد أنه هو الذي

تولى إخراجهم بنفسه؛ فطالعنا على ما جال في النفوس فقال: ﴿**مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ**﴾، أي: لا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم، ولا هم كانوا يتصورون وقوعه؛ بعد أن اغتروا بقوتهم، ومناعة حصونهم، ونسوا أن قوة الله تعالى لا تردها الحصون؛ ﴿**فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**﴾، أتاهم من المكان الذي لم يحسبوا حسابه، من مأمنهم، من قلوبهم، وبيَّن لهم في ذلك أنهم لا يملكون ذواتهم، فضلاً على أن يملكوا حصونهم فيمتنعوا بها عنه سبحانه، ولـمَّا أتاهم من قلوبهم، ودبَّ فيها الرعب؛ تسلطوا بأنفسهم على تلك الدور والحصون يخربونها بأيديهم، ويمكنوا المؤمنين من إخرابها! ﴿**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وبعدها يأتي الهتاف القرآني، والقلوب مهيئةٌ للعظة، متفتحةٌ للاعتبار؛ فيقول: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ بما جرى لبني النضير، وتذكروا أن الله الذي قذف الرعب في قلوبهم، وسلطهم على دورهم وحصونهم؛ هو القادر على أن يفعل ذلك بأعدائه في كل زمان، وفي كل وقت؛ نصرةً لأوليائه المؤمنين؛ إذا ما أخلصوا الإيمان به، ثم أخذوا بأسباب النصر؛ فلا تغرنكم -والحال هذه- قوةُ عدوكم، ولا تركنوا لضعفكم!

إن يهود بني النضير قد شقوا لهم طريقًا غير طريق الله ورسوله، واتخذوا جانبًا غير جانبه سبحانه؛ فكفروا بالنبي الذي جاءت صفته في توراتهم، بعد أن كانوا يرقبونه، وينتظرون خروجه؛ فلذا استحقوا العذاب في الدنيا، والوعيد في الآخرة ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ ومصيرهم هذا هو مصير المشاقين لله في كل أرض، وفي كل وقت ﴿**وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾، وكان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه أثناء الحصار أن يقطعوا بعض نخيل بني النظير ويحرِّقوا بعضه؛ فنادته يهود: أما كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال تقطيع النخل وتحريقه؟ فأنزل الله في ذلك تطميناً لقلوب المؤمنين، يصوب ما فعلوه بأولئك الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله فقال: ﴿**مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)**﴾ وقد كانوا منهيين عن ذلك قبل هذا الحادث وبعده؛ ولكن هذا الاستثناء احتاج إلى بيان خاص؛ ليشفي قلوبهم، ويخزي عدوهم؛ فنزلت الآية بالبيان.

يأتي المقطع الثاني من السورة يتحدث عن الفيء، الذي أفاءه الله على رسوله ﷺ، والفيء: ما أخذه المسلمون من مال الكفار المحاربين من غير قتال، كما حدث في جلاء بني النضير، والغنيمة ما أخذوه منهم بالقوة والقتال، كما كان يوم بدر، ولكلٍّ منهما حكمه، والفيء خاص برسول الله ﷺ، وبولي الأمر من بعده، يصرفه في مصالح المسلمين الذين ذكرتهم الآية، قال تعالى:﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ**

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، وذو القربى هم قرابة رسول الله ﷺ؛ أن كانت الصدقات لا تحل لهم؛ فأعطوا من الغنيمة الخمس، ومن الفيء نصيباً، ثم إنَّ الآية لا تكتفي ببيان حكم الفيء؛ وإنما تذكر علتَه، واضعةً بذلك قاعدةً كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي فتقول: ﴿**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ﴾**، وأخرى في التشريع الدستوري للمجتمع الإسلامي فتقول: ﴿**وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾**؛ لتتجاوز بذلك الحادث الواقع، إلى آماد كثيرة في أسس النظام الاجتماعي الإسلامي.

القاعدة الأولى: قاعدة التنظيم الاقتصادي: الملكية الفردية في الإسلام محددة بهذه القاعدة الكبرى: ﴿**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ﴾**، فلا يكون المال في الإسلام متداولًا بين الأغنياء فقط، ممنوعًا عن التداول بين الفقراء، وكل وضع ينتهي فيه المال إلى التداول بين الأغنياء؛ وضعٌ يخالف النظرية الاقتصادية في الإسلام، ويخالف هدفاً من أهداف التنظيم الاجتماعي في الإسلام، ولقد أقام الإسلام نظامه الاقتصادي على أساس هذه القاعدة؛ ففرض الزكاة في الأموال، والزروع، والأنعام، وغيرها، ثم حدد الأصناف التي تصرف لها تلك الزكوات، وجعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين، فقراء كانوا أم أغنياء، وجعل الفيء كله للفقراء، وشرع المزارعة والمساقاة وغيرهما، وحرم الاحتكار والربا، وكل ذلك وغيره؛ حتى لا ينحصر المال بأيدي طائفة في المجتمع الإسلامي، وهذا نظامُ الإسلام في اقتصاده، الصادرُ من لدن حكيم خبير، جعله متوازنَ الجوانب، متناسقَ الحقوق والواجبات، توازنَ الكون وتناسقه!

القاعدة الثانية: قاعدة تلقي التشريعات من مصدر واحد: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، هذه القاعدة تمثل النظرية الدستورية الإسلامية، وتبين أن القانون إنما يستمد سلطانَه من التشريع الذي جاء به رسول الله ﷺ قرآناً أو سنة، وكل مَن يشرع قانوناً يخالف ما جاء به الرسول ﷺ؛ فليس لقانونه سلطان، والقاعدة بهذا تخالف كل تشريع في الأرض تُجعل فيه الأمةُ مصدرَ السلطات، بمعنى أنَّ لها أن تشرعَ لنفسها ما تشاء، وكلُّ ما تشرعه فهو ذو سلطان؛ ذلك أن مصدر السلطات في الإسلام إنما هو الشرع، الذي جاء به رسول الله ﷺ، والأمة تنفذُ هذا الشرع وتحرسُه، والإمام نائب عن الأمة في هذا، ولا يجوز لها أن تخالف هذا الشرع؛ أما إذا ما نزلت بالأمة نازلة، لا نصَّ فيها من كتاب ولا سنة؛ فللأمة أن تشرع لها من الأحكام والقوانين؛ بما لا يخالف أصلاً من أصول ما جاء به رسول الله ﷺ، وليس في شيء من ذلك مناقضة لنظرية الإسلام الدستورية، وإنما هو فرع عنها، وهذا نظام فريد، لا يماثله نظام من النظم

الوضعية، التي عرفتها البشرية، وبه تنحصر سلطة الأمة في هذه الحدود، ثم إنَّ الآية تربط هاتين القاعدتين بالمصدر الأول، والضمانِ الأكبر، الذي لا احتيال عليه، ولا مهرب منه، المطلعِ على السرائر، الخبيرِ بالأعمال؛ فتدعو إلى التقوى، وتخوف من العقاب فتقول: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾.

إنَّ الفيء وإن كان قد وزّع في هذه الحادثة على المهاجرين خاصة -عدا رجلين من الأنصار-؛ إلا أنَّ حكمَه عام، يوزع على الفقراء، ممن ذكرتهم الآيات التالية من المهاجرين، والأنصار، وممن يأتي بعدهم من الأجيال، وإنَّ الآياتِ إذ ذكرت الأحكام لم تذكرها جافةً مجردةً، إنما أحاطت كلَّ طائفة من تلك الطوائف الثلاثة بصفاتها الواقعية الحية، التي تصور طبيعتها وحقيقتها؛ فقالت: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾، فهذه الآية تبرز صورة المهاجرين الذين أكرهوا على الخروج من ديارهم لا لذنب؛ إلا أن يقولوا ربنا الله، خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم، معتمدين على فضل الله ورضوانه، وهم مع فقرهم وحاجتهم؛ ينصرون الله ورسوله بقلوبهم وسيوفهم؛ فاستحقوا لذلك أن يصفهم الله بأجلِّ الصفاتِ فيقول: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ فقد كانوا صورة الصدق التي تدبُّ على الأرض، ويراها الناس.

ثم تأتي الصورة الوضيئة الصادقة، التي تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار فتقول: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ لقد تبوَّأ الأنصارُ الإيمان، كما تبوأوا الدار من قبل؛ فصار الإيمان دارَهم ووطنَهم، الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، يثوبون إليه ويطمئنون، كما يثوب المرء إلى داره ويطمئن؛ فصاروا بإيمانهم ﴿**يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**﴾ وسجلوا بحبهم للمهاجرين، وإيوائهم لهم موقفاً ما شهدت البشرية مثله قط، حتى إنهم أقرعوا فيما بينهم لإنزال المهاجرين في دورهم؛ ذلك أنَّ عددَ الراغبين في الإيواء منهم، المتزاحمين عليه، كان أكثرَ من عدد المهاجرين، ولما أعطي المهاجرون فيء بني النضير؛ لم يجد الأنصار في صدورهم شيئاً عليهم، وذلك لنظافة صدورهم، وبراءة قلوبهم المطلقة، وبلغوا بذلك القمة العليا فصاروا ﴿**يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ ونفوس البشر مبنية على الشح، المعوقِ عن كل خير، ومن يقيه الله شحَّ نفسه؛ فقد نال الفلاح في حقيقته ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾، ولا يمكن أن يصنع الخيرَ شحيحٌ، يهُمُّ دائما أن يأخذ، ولا يهُمُّ مرةً أن يعطي.

ثم يأتي ذكر الصورة الثالثة لمن جاء بعدهم، وهي صورةٌ نظيفةٌ، رضيَّةٌ واعيةٌ، تبرزُ خصائص الأمة المسلمة، في جميع الأوطان والأزمان ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ تتجه نفوس هذه الطائفة لربها بطلب المغفرة، لا لذاتها فحسب، بل لسلفها الذين مضوا على الإيمان أيضاً، وتطلب براءة القلب من الغل لكل الذين آمنوا، في رأفة ورحمة فتقول: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ وهذه الآية وغيرها من الآيات تتجلى فيها طبيعة هذه الأمة، كما تتجلى الآصرة القوية التي تربط أولها بآخرها، في توادٍ وتعاطف، وشعور بوشيجة القربى العميقة، التي تتخطى الزمان والمكان، والجنس والنسب، وتتفرد وحدها في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة؛ فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحي، أو أشد، في إعزاز وكرامة، وحب ورحمة، وهي والله صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة، كما تمثل أرفعَ وأكرمَ مثال للبشرية يتصوره قلب كريم.

وبعد أن ترسم السورة صورة الإيمان الوضيئة متمثلةً في تلك الطوائف الثلاث؛ تعود للحادث الذي نزلت فيه لترسم صورة فريق آخر، ممن اشترك فيه فريق المنافقين، الذين وعدوا اليهود بالنصر، ثم لم يفوا لهم به، بل خذلوهم حتى قذف الله الرعب في قلوب اليهود؛ فتقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾، وأول ما يلفت الأنظار في هذه الآية تقريرُها القرابة بين المنافقين والكفار من أهل الكتاب، فالمنافقون إخوان الكفار؛ ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام، يدل على تلك الإخوة التوكيدُ الشديدُ الذي قالوه لإخوانهم الذين كفروا ﴿**لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ**﴾ ولكن الله العليمَ بحقيقتهم، الخبيرَ ببواطنهم يؤكد غير ما يؤكدون، ويقرر غير ما يقررون فيقول: ﴿**لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ**﴾ وكان ما شهد به الله، فكذب المنافقون فيما أعلنوه لإخوانهم وقرروه، ثم إن الآيات تكشف عن حقائق أخرى، قائمة في نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا فتقول: ﴿**لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**﴾ فهم يرهبونكم أكثر مما يرهبون الله تعالى، ولو كانون يخافون الله تعالى لما خافوا أحداً من عباده، ثم تكشف السورة عن حقيقة أخرى، قائمة في نفوس أولئك القوم، نشأت عن حقيقة رهبتم للمؤمنين أكثر من رهبتهم لله؛ وهي أنهم: ﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ**

شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إنهم وإن خدعتنا مظاهرهم؛ فخُيِّل إلينا أنهم متضامنون فيما بينهم؛ إلا أن الخبر الصادق من السماء يقول: إنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم، فهم مختلفون، متناحرون، قلوبهم شتيتة متفرقة، وما تزال الأيام تكشف بين الحين والحين هذا الستار الخادع؛ فتبدو من ورائه حقيقة ذلكم الخلاف الحاد، المستعر بينهم، على خلاف حال المؤمنين، الذين تتضامن أجيالهم، وتجمعهم آصرة الإيمان، من وراء فواصل الزمان والمكان، والجنس والوطن والعشيرة، وما ينال المنافقون والذين كفروا من المسلمين؛ إلا عندما تتفرق قلوب المسلمين، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين، التي عرضتها الآية في المقطع السابق في هذه السورة، فأما في غير هذه الحالة؛ فالمنافقون أضعف وأعجز؛ لأن ﴿**بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**﴾ بتقرير هذه الحقائق في نفوس المؤمنين؛ يهون عليهم أمر عدوهم، وترتفع هيبتُه من قلوبهم، ويدركون حقيقةَ حالهم وحالَ عدوهم، والله قد أطلعهم على هذه الحقائق بعد أن ساق لهم حادثاً قد وقع، عقَّب عليه، وشرح دلائله بما يفيد منه الذين شهدوه، ومَن يتدبره ممن جاء بعدهم، ولم يكن الحديث عن تلك الحقائق مجرد خيال محلق، أو رؤىً طائرة.

لم يكن حادث إخراج بني النضير هو الأول من نوعه؛ فقد سبقه إخراج بني قينقاع، الذين أشارت إليهم الآية فقالت: ﴿**كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ وتجلت في إخراجهم عن المدينة حقيقة الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب، وذلك بعد أن وقف رأس المنافقين ينافح عن بني قينقاع ويدافع؛ حتى رضي رسول الله ﷺ في النهاية أن يجلوا عن المدينة، وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم إلا السلاح، ورحلوا إلى الشام؛ فالآية تشير إلى هذه الواقعة، وتقيس عليها حال بني النضير وحقيقتهم، وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء، ثم تضرب للمنافقين –الذين أغروا اليهود بالنصر– مثلاً بحال الشيطان مع الإنسان، الذي يستجيب لإغرائه، ثم ينتهي وإياه إلى شر مصير: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها، وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ**﴾، وبهذا الحشد من الصور، والحقائق والتوجيهات؛ تنتهي قصة بني النضير في السورة، ليتجه الخطاب بعدها للمؤمنين، فيهتف بهم باسم الإيمان الذي يربطهم بصاحب الخطاب، يدعوهم فيه إلى التقوى، والنظر فيما أعدوه للآخرة، ويحذرهم نسيان الله؛ فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ يدعوهم إلى التقوى التي تجعل القلب خائفاً متحرجاً مستحيياً أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها، ويدعوهم ليفتحوا صفحة أعمالهم وما قدموا؛ بل صفحة حياتهم كلها،

يتأملون وينظرون في رصيد حسابهم، وما قدموا لغدهم، وإنها دعوةٌ كفيلة بأن توقظ القلب إلى مواضع ضعفه، ومواضع نقصه، ومواضع تقصيره، مهما كان قد أسلف من خير، وبذل من جهد؛ فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً؟ ونصيبه من البر ضئيلاً؟ إنها دعوة لا ينام بعدها القلب أبداً، ثم إنَّ الآية تزيد القلوب حساسية، ورهبة، واستحياء؛ فتقول: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ ثم تحذرهم من أن يكونوا: ﴿**كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**﴾، ذلك أن الذي ينسى ربه؛ يهيم في هذه الحياة بلا هدف يرفعه عن السائمة التي ترعى، ينسى إنسانيته، فلا يعود يدخر لها زاداً للحياة الطويلة الباقية، ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ طريقهم طريق أهل النار، وطريق المؤمنين طريق أهل الجنة و﴿**لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ**﴾ لا يستويان حالاً، ولا سلوكاً، ولا وجهةً، ولا مصيراً، مصير أصحاب الجنة، واضح مذكور، يُعنى به اللفظ فيقول: ﴿**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ ومصير أهل النار مسكوت عنه معروف، ضائع لا يُعنى به التعبير! ثم تأتي الآية بعد ذلك لتذكر أعظم حقيقة في هذا الوجود، حقيقة ثقل القرآن وأثره، وسلطانه المزلزل، الذي لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ يجد تلك الحقيقة من يفتح كيانه لتلقي شيء من حقيقة القرآن؛ فيهتز ويرتجف، والله خالق الجبال يقول عنها ما يقول، ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

وفي آخر السورة تأتي التسبيحة المديدة بأسماء الله الحسنى، وصفاته المجيدة؛ في ثلاثة مقاطع، كل مقطع منها يبدأ بصفة التوحيد؛ كأنما الوجود كله قد وعى حقيقة القرآن؛ فانطلق لسانه بها، وتجاوبت أرجاؤه مسبحة بأسماء الله الحسنى ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)**﴾ تقرر هذه الآيات في مطلعها وحدانية الله تعالى في ألوهيته، وتزرع في الضمير رقابة العبد لله، في السر والعلانية؛ لأنه سبحانه ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ كما تزرع في قلبه الطمأنينة والرحمة؛ لأن الذي تعبده ﴿**هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ الذي لا يطارد عباده، ولا يريد لهم الشر، بل الهدى والخير؛ لأنه مالك الخير كله، ولا مالك سواه، فهو ﴿**الْمَلِكُ**﴾ الذي لا يُخدم سواه، وإذا ما خدمه العبد وحده؛ أفاض عليه الملكُ من قداسته المطلقة، وطهارته المطلقة؛ لأنه ﴿**الْقُدُّوسُ**﴾؛ فينظُف قلبُ المؤمن ويطهر، ويأمن في جوار سيِّده ويسلم، فمن أسمائه ﴿**السَّلَامُ**﴾ الذي يفيض على الوجود سلاماً، وطمأنينةً، ويهب عباده الأمن

والإيمان فهو ﴿**الْمُؤْمِنُ**﴾ وهو مع ذلك له السلطان والرقابة، والقهر والجبروت، والغلبة والاستعلاء فهو ﴿**الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**﴾ لا يشاركه أحد في صفاته، ولا يتصف بها سواه ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ ثم تتوالى الصفات المترابطة، اللطيفة الفروق، التي تستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء، والإيجاد والإخراج ﴿**هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ**﴾ فالخلق هو التصميم، والبرء هو التنفيذ، والتصوير إعطاء الملامح المتميزة، والسمات التي تمنح لكل شخص شخصيته الخاصة، فسبحان من ﴿**لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ في ذاتها، بلا حاجة إلى استحسانٍ من الخلق، وسبحان من ﴿**يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ في مشهد يشع في جنبات الوجود، وينبع من كل موجود.

سورة الممتحنة

هذه السورة حلقة من حلقات إعداد الجماعة المسلمة المختارة؛ لتقوم بمنهج الله في الأرض كما يريده الله، وقد استغرق إعدادُها زمنًا طويلًا، ومرَّ بمراحل وخطوات كثيرة، السورةُ توقفنا على مرحلة من تلك المراحل والخطوات، وهي أبعدُ في موضوعها ومقصدها عن الاقتصار على ذكر حادثة وقعت لصحابي وقت ضعفٍ، أو غفلة؛ بل إنها تتجاوز الموقف الحادث لتوقفنا على ضرورة الانتباه إلى مكنونات النفس البشرية عمومًا، النفس التي ما تزال متعلقة برواسب الماضي وشوائبه، وكيف ينبغي أن تطهرَ منه؛ لتصفوَ لقيادة البشرية كلها، وإقامة منهج الله في الأرض، وتكون كما كانت نفس رسول الله ﷺ، التي تبدو في تعامله مع هذا الحادث الذي نزلت فيه السورة، أو مع حوادث أخرى مرَّت بها الجماعة المسلمة.

لقد كان رسول الله ﷺ يقتنص الحوادث والوقائع التي تقع من أصحابه ويلتقطها، ثم يجعلها مادة عملية، يربيهم بها على منهج الله في صورته الأخيرة في الأرض، على أن بعض تلك الحوادث كانت تتكرر مرات كثيرة، ويُعاد صهر الجماعة الناشئة فيها مرة تلو الأخرى؛ حتى تسمو نفوسهم، وتكون خليقة بحمل المنهج الأخير الذي اؤتمنت عليه، لأن الله تعالى الذي خلق تلك النفوس؛ يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب منذ اللمسة الأولى؛ لأن رواسب الماضي، وجواذب الميول الطبيعية، كانت عوامل قوية تغلب عوامل التربية والإعداد أحياناً؛ فتحتاج تلك العوامل في مقاومتها إلى التذكير المتكرر، والصهر المتوالي؛ لذا كانت الأحداث تتوالى كما هي مرسومة في قدر الله، وتتوالى الموعظة بها، والتحذير على ضوئها، والتوجيه بهديها، مرة بعد مرة؛ لتصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله، بتوفيق الله، على يدي رسول الله ﷺ.

سورة الممتحنة تطالعنا على صفات العالَم الذي يريده الله في الأرض، عالم رباني إنساني، يقوم على الإيمان بالله وحده، ويرتبط أفراده جميعاً بعروة الإيمان، التي تذوب أمامها فواصل النسب والقبيلة، والجنس والأرض، ويُجعل مكانها عقيدة الإيمان بالله وحده، يستمد الكلُّ فيها مقوماتِه من توجيه الله وحكمه، ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله، ودون قيام هذا العالَم بتلك المواصفات؛ ستبقى عوائق الجاهلية من نسب وقبيلة، وجنس وأرض، وهوى قلب، ورغبات نفس، وغيرها؛ ستبقى قائمة، تحول دون قيام المنهج الأخير في الأرض.

تطالعنا سورة الممتحنة على أن نفوس بعض المهاجرين كانت ما تزال مشدودةً إلى ما خلفت في مكة، من ذرية وأزواج، وذوي قربى؛ على الرغم من كل ما ذاقوه من قريش من أذى وعنت، وكانت تلك النفوس تودُّ أن لو وقعت بينهم وبين قريش المحاسنةُ والمودةُ، وأن لو انتهت هذه الخصومة، التي تكلفهم قتال أهليهم

وذويهم، وتقطع ما بينهم من صلات، وكان الله يريد تخليص هذه النفوس من تلك الوشائج كلها، وتجريدَها لدينه، وعقيدته، ومنهجه، وهو يعلم ثقل الضغط الواقع على تلك النفوس من الميول الطبيعية، ورواسب الجاهلية، كيف وهم العرب أشدُّ الناس احتفالاً بعصبية القبيلة، والعشيرة، والبيت، ولكنه مع ذلك كان يأخذهم بالعلاج الناجع البالغ، يأخذهم ويربيهم بالأحداث، ثم بالتعقيب عليها؛ حتى تصفو نفوسهم من تلك الشوائب والوشائج كلها.

وقد روي أن هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ﷺ لمَّا كتب إلى قريش عام الفتح، يعلمهم أن رسول الله ﷺ يريد غزوهم، وذلك بعد أن أعلمه رسول الله ﷺ وعدداً من أصحابه بوجهته، وقد روى البخاري في صحيحه قصة حاطب التي نزلت فيها السورة، قال علي ﷺ: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير، والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوا منها» قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة، إلى ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟» قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين مَن لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؛ فأنزل الله السورة: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق**﴾ [الممتحنة: ١] إلى قوله: ﴿**فقد ضل سواء السبيل**﴾ [البقرة: ١٠٨][(١)].

إن المتأمل فيما فعله حاطب ﷺ، وهو من المهاجرين البدريين الذين اطلعهم رسول الله ﷺ على سر الحملة؛ يدرك حالات الضعف التي تمر بها النفس البشرية، مهما بلغت في كمالها وقوتها، وأنه لا عاصم لها إلا الله وحده، كما أن الحادث يطالعنا على ما ينبغي أن يكون عليه المربي حالة الضعف الطارئ على نفوس

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، ٥/١٤٥.

أصحابه، إذ ينبغي عليه أن يعينهم، وينهض بهم من عثرتهم، فلا هو يطاردهم، ولا يسمح لأحد أن يطاردهم، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع حاطب ﷺ، إذ قال لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم»، ثم إن حادثة حاطب تطالعنا أخرى على عظيم أدب المسلمين مع قيادتهم، وتواضعهم في الظن بأنفسهم؛ فلم يقل أحد منهم: هذا حاطب الذي عهد إليه رسول الله ﷺ بسر الحملة يخون السر ويفشيه، ولو أودعناه نحن ما بُحنا به؛ لم يرد شيء من ذلك عنهم ﷺ، والسورة -كما قلنا- أبعد مدىً من حادثة حاطب.

يقول تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ**﴾ [الممتحنة: ١] يناديهم بنداء ودودٍ موحٍ، يشعرهم فيه أنهم منه وإليه، وأن من يعاديهم يعاديه؛ لأنهم رجاله، الذين ينتسبون إليه، ويحملون شارته، ولا يجوز لهم أن يلقوا المودة إلى عدوهم وعدوه، ثم يهيج قلوبهم بذكر جريرة هؤلاء المشركين عليهم، وعلى دينهم؛ فيقول: ﴿**وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**﴾ وهل يبقى بعد هذه الجرائر الظالمة مكان للمودة والموالاة؟ حاربوكم وأخرجوكم لا لشيء؛ إلا لأجل عقيدتكم، لإيمانكم بالله ورسوله، ولا محلَّ للمودة بينكم وبين المشركين ﴿**إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي**﴾، لا يجتمع في قلبٍ واحد أن يهاجر ابتغاء مرضاة الله، ثم يواد من كفر بالله.

ثم إنه تعالى يحذرهم مما تكنه قلوبهم إلى أعدائهم من المودة فيقول: ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾، ثم يتدرج في تهييج قلوبهم ضد أعدائهم؛ فيبصرهم بحقيقة عدوهم، وما يضمرونه لهم من الشر والكيد فيقول: ﴿**إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ [الممتحنة: ٢]، إنهم لن تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها منكم؛ إلا وتصرفوا معكم تصرف العدو الأصيل، وفوق ذلك: ﴿**وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ وهذه الأمنية منهم هي أشدُّ الأذى وأعظمه.

ثم تأتي اللمسة التي تعالج وشائج القربى، المتأصلة في النفوس، التي تضطر البعض أحيانًا لموادة أعداء الله من أقاربه وذويه -كما حصل مع حاطب-؛ لتقول لهم: إن تلك الوشائج كلها ستنقطع يوم القيامة، وستبقى وشيجة الإيمان بالله وحده، وإن ذلك مما يهون على العبد شأن تلك الوشائج كلها فترةَ الحياة القصيرة، ويتجه إلى طلب الوشيجة الدائمة التي لا تنقطع، وشيجة الإيمان وحدها ﴿**لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الممتحنة: ٣]، وبعد ذلك تأتي الآيات التي تربط آخر هذه الأمة بأولها، لأنهم قافلة واحدة، ممتدة في الزمان، متميزة بالإيمان، متبرئة من كل وشيجة تنافي وشيجة العقيدة، تربطهم بأبيهم إبراهيم عليه السلام صاحب الحنيفية، الذي عانى من عاطفة القرابة ووشائجها؛ حتى خلص ومن

معه من المؤمنين، وتجرَّد لعقيدته وحدها ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾ [الممتحنة: ٤]، إن القافلة المؤمنة التي قادها إبراهيم عليه السلام قد مرَّت بمثل ما مرَّت به الجماعة المسلمة في المدينة، وبمثل ما يمرُّ به كل من يحمل راية هذا الدين، وانتهت إلى التبري من تلك الوشائج والروابط كلها، والخلاص إلى الوشيجة التي لا تنقطع في الدنيا والآخرة، وشيجة العقيدة، وإن هذا ليوحي للمؤمن بأن الأمر ليس جديداً، ولا مبتدعاً، ولا هو تكليف يشق على المؤمنين، بل هو فرع من شجرة، قد غرسها إبراهيم بيده، وإن موقف إبراهيم عليه السلام إذ تبرأ من قومه، ومما يعبدون، وآمن بالله وحده؛ لهو فصل الخطاب في مثل هذه التجربة، التي يمر بها المؤمن في أي جيل، إنها مفاصلة حاسمة جازمة، لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بين المؤمن والكافر، بعد أن انقطعت بينهم وشيجة العقيدة، وأواصر الإيمان، ولقد كان البعض يجد في قول إبراهيم لأبيه: ﴿**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ**﴾ ثغرةً يبث من خلالها عواطفه الحبيسة، ومشاعره الموصولة بذوي قرابته من المشركين؛ فجاء القرآن يشرح لهم موقف إبراهيم من أبيه، وأن ذلك كان منه قبل أن يستيقن إصرار أبيه على الشرك ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**﴾ وفوض أمره إلى الله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة قائلاً: ﴿**رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ ويستطرد القرآن هنا في ذكر دعاء إبراهيم فيقول: ﴿**رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ لا تسلطهم علينا فيكون في ذلك فتنتهم، فيقولون: لو كان الإيمان يحمي أهله ما سُلطنا عليهم وقهرناهم، ﴿**وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ يُنهي الخليل دعاءه بإظهار عجزه البشري عن بلوغ المستوى الذي يكافئ نعم الله وآلائه؛ فيطلب مغفرته؛ لأنه القادر الحكيم سبحانه، ثم يعود ويقرر لهم الأسوة نهاية المقطع فيقول: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [الممتحنة: ٦]، وينتهي هذا المقطع بعد أن أوقف المؤمنين على تجارب من سبقهم من الرهط الكريم؛ فلا يعودون يشعرون بالغربة، أو الوحشة وهم يسلكون هذا الطريق؛ بل يدركون أنها طريق معبدة، قد سلكها من سبقهم، إبراهيم والذين آمنوا معه.

بعد أن بينت الآيات السابقة للمؤمنين أنه لا بد من المفاصلة الحاسمة الجازمة بينهم وبين المشركين استجابةً لوشيجة العقيدة؛ جاءت الآيات بعدها لتنسِّمَ على قلوبهم نسمات الأمل الندية، وهم الذين يرغبون بزوال حالة العداء والجفوة بينهم وبين ذويهم من المشركين؛ فتقول: ﴿**عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ**

عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، إنه رجاء الإسلام في إسلام هؤلاء المشركين، رجاءً يخفف الله به عن النفوس المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة، وكان ما رجاه الإسلام، ففتحت مكة، وأسلمت قريش، وانضوى الجميع تحت راية واحدة، وطويت الثارات، وائتلفت القلوب، ذلك أن الإسلام دين سلام وحب، يهدف إلى أن يظلل العالم كله بظله، ويجمع الناس تحت لوائه، وإن الذي يحول دون ذلك عدوانُ أعدائه عليه، وعلى أهله، وإذا ما سالموه؛ فالإسلام غير راغب في الخصومة، ولا متطوع بها؛ بل إنه في حالة الخصومة؛ يستبقي على أسباب الود في النفوس بعدالة المعاملة، ولا ييأس من إسلام خصومه، واقتناعهم بأن الخير أن ينضووا تحت لوائه، وبين يدي هذا الرجاء في إسلام المشركين؛ يضع الإسلام قاعدته الكبرى في التعامل معهم؛ فيرخص للمؤمنين موادة من لم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ويحصر سبب الخصومة في العقيدة وحدها؛ فيقول: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)**﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]، وهذه القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد، التي تتفق مع طبيعة هذا الدين، ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، فهي تبرز قيمة العقيدة، وتجعلها الرايةَ الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون، فمن وقف معهم تحتها فهو منهم، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم، ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم، ولم يصدَّ الناس عنها، ولم يحُل بينهم وبين سماعها، ولم يفتنِ المؤمنين بها؛ فهو مسالم، لا يمنع الإسلام من البر به، والقسط معه، تلك هي قاعدة الإسلام الكبرى في علاقاته الدولية؛ وإذا ما أثبتت لنا التجارب أن القوم لا يرعون عهودهم مع المسلمين؛ إلا ريثما تسنح لهم الفرصة لنقضها وهم الرابحون؛ نعاملهم بقاعدة: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ ننبذ إليهم عهدهم، وننهي حالة المعاهدة والموادعة معهم؛ لنأمن غدرهم.

يأتي بعد هذا التأصيل -لقاعدة الإسلام الكبرى في معاملاته الدولية القائمة على العدل- الحديثُ عن حكم المؤمنات المهاجرات: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ**

أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)﴾ [الممتحنة: ١٠، ١١]، وقد نزلت هذه الآيات بعد صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ والمشركين، ومما جاء في بنود الصلح: "على ألا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك؛ إلا رددته إلينا"، فلما رجع رسول الله ﷺ، ووصل أسفل الحديبية؛ جاءته نساء مؤمنات مهاجرات؛ ولم يكن نصُّ الصلح قاطعاً فيما يتعلق بهجرة النساء؛ فنزلت هاتان الآيتان تمنعان ردَّ المؤمنات إلى الكفار؛ حتى لا يُفتنَّ في دينهنَّ لضعفهنَّ، وتقرران الأحكام المترتبة على هذا المنع، وتنظِّمان التعامل مع هذه الحالة على أعدل قاعدة تتحرى العدل في تعامل الإسلام مع خصومه، دون تأثر منه بسلوكهم الجائر، على طريقته في كل معاملاته الداخلية والدولية.

وأول إجراء يتخذُ مع تلك المهاجرات امتحانُهم؛ ليُعلمَ سبب هجرتهن، قال ابن عباس: "كان يمتحنهن: بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماسَ دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله"، يُمتحنَّ في الظاهر، أما الباطن فـ ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ**﴾، وإذا ما أقررن بالإيمان ﴿**فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ؛ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾ لأن وشيجة العقيدة قد فرقت بينهم، والقلب إذا ما خوى من الإيمان؛ لا يستطيع قلبٌ مؤمنٌ أن يتجاوبَ معه؛ على أن هذا الأمر كان متروكاً بلا نص أولَ الإسلام، فلم يكن يُفرَّقُ بين الأزواج المؤمنين وزوجاتهم الكافرات؛ لأن المجتمع المسلم لم تكن قواعده قد استقرت بعد، أما بعد فتح الحديبية؛ فقد آنَ أنْ تقعَ المفاصلة الكاملة؛ ويستقرَّ في نفوس المؤمنين أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان، وأن لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله.

وعلى قاعدة العدل والمساواة في الإسلام كان الإجراء الثاني في هذا التعامل الدولي؛ أن يُردَّ للزوج الكافر قيمةُ ما أنفقه من مهر لزوجته المؤمنة التي فارقته؛ تعويضاً للضرر، ويُردَّ للزوج المؤمن قيمةُ ما أنفق من مهر لزوجته الكافرة، وبعد ذلك يحل للمؤمنين نكاحُ المؤمنات المهاجرات؛ إذا ما آتوهن مهورهن، على خلاف فقهي في هل تجب عليهن عدة، وما مقدارها، ثم يربط القرآن هذه الأحكام والإجراءات بالضمانة الكبرى، ضمانة الرقابة الإلهية، وخشية الله وتقواه؛ فيقول: ﴿**ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ ويكفي أن يدرك ضمير المسلم مصدر الحكم؛ ليستقيم عليه ويرعاه، وهو يوقن أن مرده إلى الله، ثم قال: ﴿**وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا**﴾ إذا ما امتنعت الكوافر، أو أهليهن من رد ما أنفقه الزوج المؤمن عليهن؛ فإن الإمام يعوضه من بيت المال، أو مما يقع بين

يديه من أموال الكفار، ويربط القرآن هذا الحكم بالضمان الذي يتعلق به كل حكم، وكل تطبيق فيقول: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾، وهكذا يتجسد في هذه الأحكام والإجراءات المتعلقة بالمؤمنات المهاجرات وأزواجهن الكفار؛ يتجسدُ تصور الإسلام للمقاطعة والمفاصلة القائمة على أساس العقيدة، يتجسدُ واقعاً عملياً؛ ميَّز صفوف المؤمنين عن صفوف الكافرين.

ثم بيَّنت السورة لرسول الله ﷺ كيف يبايع تلك المهاجرات وغيرهن على الإسلام؛ فقالت: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الممتحنة: ١٢]، وما جاء في الآية من أسس هي المقومات الكبرى للعقيدة، وللحياة الاجتماعية الجديدة، فلا إشراك بالله، ولا إتيان للحدود، ولا سرقة، ولا زنا، ولا قتل للأولاد، والشرط الأخير: ﴿**وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾ وهذا الشرط هو أحد قواعد الدستور في الإسلام، يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام، أو حاكم؛ إلا في المعروف، الذي يتفق مع دين الله وشريعته، وأنه لا طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر! وهي القاعدة التي تجعل قوة التشريع والأمر مستمدةً من شريعة الله، لا من إرادة إمام، ولا من إرادة أمة إذا ما خالفت شريعة الله، فالكل محكوم بشريعة الله، ومنها تُستمدُّ السلطات، فإذا بايعنَ على هذه الأسس الشاملة؛ قُبلت بيعتُهنَّ، واستغفر لهنَّ رسول الله ﷺ عما سلف منهنَّ.

وفي الختام يهتف للذين آمنوا بالصفة التي تميزهم عن غيرهم فيقول لهم: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ**﴾ [الممتحنة: ١٣]، ينهاهم عن موالاة أعدائهم نهاية السورة، كما نهاهم عن ذلك بدايتها، والذين غضب الله عليهم هم اليهود، ولا يُمنع دخول النصارى وغيرهم في الآية، من الذين قد حرموا أجر الآخرة، فلم يعد لهم رجاء، ولا تعلق بها، كما لم يعد للكفار في الدنيا رجاء، ولا أمل في بعث من مات، ولا في محاسبته.

سورة الصف

تقرر هذه السورة في ضمير المسلم أنَّ دين الإسلام الذي جاء به نبيُّنا محمد ﷺ هو المنهج الإلهي في صورته الأخيرة في الأرض، وأنَّ هذا المنهج قد مرَّ بمراحل ومحطات من حياة الأمم، كانت كل محطة منه تناسب عمر البشرية، ونضوجها العقلي، ولقد طالعتنا سورة الصف على محطتين من تلك المحطات، أولى المحطتين محطةٌ انتُزع فيها هذا المنهج الرباني من الأمة التي اؤتمنت عليه؛ إذ لم تقم به، بل آذت نبيها موسى u، وزاغت عن منهج ربها؛ فأزاغ الله قلوبها، وثانيهما محطةٌ حملت راية المنهج، وقامت به، حتى آل بعدُ في صورته الأخيرة إلى نبيّ آخر الزمان، محمد ﷺ وأمته.

وتقرر السورة في خلد المسلم أنَّ أمانة العقيدة كلها موكولة إليه، وأن شعوره بهذه الحقيقة، وإدراكه لقصة العقيدة؛ لا بد أن يدفعه لصدق النية في الجهاد لإظهار هذا المنهج في الأرض على الدين كله، وألا يتردد بين القول والفعل، فيقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه، كما حدث مع فريق من المسلمين ممن طالعتنا عليهم هذه السورة، وما ذكرته بعض الرويات، كما سيأتي.

مطلع السورة الأول يطالعنا -بعد إعلان تسبيح الكون كله لله- على حال فئة من المسلمين، دفعهم حماسهم وحبهم للإسلام أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى؛ فلمَّا عرفوها، ونزل بها قرآنٌ؛ ضعفوا عن القيام بها ونكلوا، فجاء مطلع السورة يعاتبهم أشدَّ العتاب، ويبيّن لهم -وللأجيال من بعدهم- أن الله تعالى يمقت أشدَّ المقت، ويستفظع من الذين آمنوا أن يقولوا ما لا يفعلون: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)**﴾ وقد روى الترمذي عن عبد الله بن سلام t في سبب نزول هذه الآيات أنه قال: "قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحبُّ إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ فقرأها علينا رسول الله ﷺ".

إن السمة الأبرز في شخصية المسلم، التي دقَّ عليها القرآن كثيرًا، وأكدتها السنة بالتكرار هي: الصدقُ والاستقامةُ، ولا ينبغي لمن جعلهم الله أمناء على منهجه الأخير في الأرض أن يخالف باطنُهم ظاهرَهم، وقولُهم فعلَهم، إذ يقبح بالمؤمن أن يعلن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه، كما حدث مع فريق

من المسلمين، ولعلَّ أدقَّ التوجيهاتِ النبوية وألطفَها في تقرير هذه السمة؛ ما رواه الإمامُ أحمد عن عبد الله بن عامر t، أنه قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا صبي، قال: فذهبتُ أخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك، فقال رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: أعطيه تمراً، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليكِ كذبة»(١).

إنَّ حال أولئك المسلمين الذين سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى وقت حماسهم واندفاعهم، ثم نكلوا عنها وقت رخائهم وضعفهم؛ إن ذلكم الحال يطالعنا على حالات الضعف الطارئة، التي تلمُّ بالنفوس، وتلهمنا أنه لا يعصم النفس من ذلكم الضعف والكسل إلا عونُ الله تعالى ومددُه، ثم دوامُ تذكير النفس وتوجيهها، وتعاهدها بالتقوية والتثبيت، وهي تواجه التكاليف الشاقة؛ لتستقيمَ في طريقها، وتتغلبَ على لحظات ضعفها، وتتطلعَ دائمًا إلى الأفق البعيد، كما أنَّ ذلكم الحال الذي اعترى تلك الفئة من المسلمين؛ يلهمنا أخرى أن نتواضع في طلب التكاليف وتمنيها حالةَ العافية، فلعلَّنا لا نقوى على ما نقترح على الله تعالى أن يكلفنا إياه! وهذا منهج تربوي في الحياة كلها، فهؤلاء القوم سألوا، ثم ضعفوا ونكلوا؛ فعاتبهم الله أشدَّ العتاب.

ثم تغرينا تلك الآيات بأحب الأعمال إلى الله تعالى إذ تقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾، وهذه الآيات تتعدى بمعانيها الحادثَ المحدود الذي نزلت لأجله، ذلك أنَّ الإسلام يواجه بمنهجه الأخير في الأرض البشريةَ كلَّها، وهو يكلف النفوس جهدًا لتسموَ إلى مستواه، وثَمَّت قوىً في الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر؛ لأنه يسلبها كثيرًا من الامتيازات، التي تستند إلى قيم باطلة زائفة، جاء المنهج الأخير ليحاربها، ويقضي عليها حين يستقر في الأرض؛ ومن ثَمَّ يتعين على حملة الإيمان، وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء؛ ليغلبوا عملاء الشر، وأعوان الشيطان، أقوياء في أخلاقهم، وأقوياء في قتال خصومهم على السواء، ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد، وحرية الاعتقاد به، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم، يقاتلون في سبيل الله، كما يحبُّ الله: ﴿**صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾، وذلك للمسلم تكليف فردي؛ لكنه تكليف ضمن جماعة منظمة، تقاتل عدوَّها صفًّاً سويًّاً منتظمَاً، وصفًّاً متينَاً راسخَاً، وهذه العبارة

---

(١) أحمد، **المسند**، ٢٤/٤٧٠، قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

﴿**صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾، ترسم لنا طبيعة ديننا، وتكشف لنا عن طبيعة التضامن الوثيق، الذي يريده الله تعالى للمجتمع المسلم، بنيانٌ تتعاون لبناتُه وتتماسك، وتؤدي كل لبنة دورها، وتسد ثغرتها؛ لأن البنيان كله ينهار؛ إذا ما تخلت منه لبنة عن مكانها، وذلك حال المسلم الفرد المنعزل، الذي يعبد وحده، ويجاهد وحده، ويعيش وحده، إنها صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين، وعن مقتضياته في حالة الجهاد، وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة.

ثم تأتي الآيات وتذكر قصة المنهج ومراحله في الرسالات قبل الإسلام؛ فتقول: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)**﴾ يعاتبهم موسى u في مودة ولطف على إيذائهم المستمر له، وهم الذين يعلمون يقينًا أنه رسول من عند الله، ولمَّا كثر إيذاؤهم له؛ أزاغ الله قلوبهم، فلم تعُد صالحة للهدى؛ وانتهت بذلك قوامتُهم على دين الله ومنهجه في الأرض، ولقد طالعنا القرآن على صور شتى من ذلكم الإيذاء، فبينما موسى u يحاول مع فرعون إنقاذهم، ويتعرض لبطش فرعون وجبروته، وهم آمنون بذلتهم؛ إذ بهم يقولون له متبرمين: ﴿**أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾ كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير، وما كاد ينقذهم من ذل فرعون، ويغرقه الله وهم ينظرون؛ حتى قالوا: ﴿**يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾، وما كاد يذهب لميقات ربه؛ حتى أضلهم السامري: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا: هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ**﴾، ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم في الصحراء؛ فقالوا: ﴿**يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها**﴾ ولمَّا أمرهم بذبح البقرة ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب، ويقولون: ﴿**ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ**﴾، ﴿**ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها**﴾، ﴿**ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا**﴾، وفي النهاية: ﴿**فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ إلى غير ذلك من إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات، والعصيان والتمرد، والاتهام الشخصي بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث، ولمَّا بذلت لهم كلُّ أسباب الاستقامة ولم يهتدوا؛ أزاغ الله قلوبهم، وكتب عليهم الضلال أبداً، ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾.

ثم جاء عيسى بن مريم u يقول: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ وهذه الآية تصور ترابط حلقات الرسالة الواحدة، التي يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها، واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة، فرسالة عيسى u امتداد لرسالة موسى u، وهو مبشرٌ بمحمد ﷺ، وهذه الآية هي الفيصل والقول الأخير فيما اضطربت فيه الروايات، بشأن بشارة عيسى u، بنبوءة محمد ﷺ؛ ولمَّا جاءهم محمد بالبيّنات قالت بنو إسرائيل: ﴿**هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾، وناصبوه العداء، وأخذوا يكيدون لدعوته، وما يزالون، محاولين بذلك إطفاء نور الله بأفواههم.

ولقد طالعتنا كتب السير على صور كثيرة من ذلكم العداء والتضليل، فذكرت لنا محاربة اليهود للإسلام بمحاولة الإيقاع بين المهاجرين والأنصار تارة، وبين الأوس والخزرج أخرى، والتآمر مع المنافقين مرة، ومع المشركين ثانية، وبث الإشاعات في فتنة عثمان t على يد ابن سبأ، وبث الأكاذيب والإسرائيليات في كتب الحديث والسيرة والتفسير؛ حين عجزوا عن الوضع في القرآن الكريم، واستمرت الحرب؛ فحاربته في المشرق، وفي الأندلس، وفي المغرب، وفي دار الخلافة العثمانية؛ حتى مزقت جسد (الرجل المريض)، ولم تضع تلك الحرب أوزارها بعد؛ وما تزال الصهيونية العالمية والصليبية العالمية تؤلبان على الإسلام، من غير وناة، ولا هدنة ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ وصدق الله وعده؛ فأتم نوره في حياة رسول الله ﷺ، فأقام المجتمع المسلم، الذي تمثل فيه منهج الله في صورته الأخيرة في الأرض، ثم صدق الله وعده لأصحاب رسوله؛ فأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً؛ فساحوا في الأرض ينشرون المنهج الأخير في أرجائها، وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين، وتنبض وتنتفض قائمة؛ رغم كل ما جرد على الإسلام من حرب وكيد؛ ذلك أن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه؛ وإن حُيِّل للطغاة الجبارين أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد، لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين، فكان من الحتم أن يكون: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾.

لقد كانت تلك الآيات وما تزال حافزًا للمؤمنين على حمل أمانة المنهج، الذي لم يرْعَه اليهود ولا النصارى في الأرض، وبعدها جاء الهتاف القرآني لحملة ذلكم المنهج؛ جاء يهتف بهم إلى أربح تجارة في

الدنيا والآخرة، تجارة الإيمان بالمنهج الأخير، والجهاد في سبيل إظهاره في الأرض؛ فيقول: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)**﴾ تكرار وتنوع في عرض موضوع السورة الرئيس؛ لأن الله خالق النفوس يعلم حاجتها إلى هذا التكرار، وهذا التنوع؛ لتنهض بهذا التكليف الشاق، الذي لا مفرَّ منه لإقامة هذا المنهج، وحراسته في الأرض، يدعوها لتعطي الدنيا، وتأخذ الآخرة، تأخذ الجنة! وإنَّ الله الذي يعلم أن النفوس تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض، يناسب تركيبها البشري المحدود؛ هتف بها أخرى فقال: ﴿**وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)**﴾ وفي هذا تبلغُ الصفقة ذروةَ الربح، فالجنة ونعيمها في الآخرة، والنصر والظفر في الدنيا، وإنَّ الخاسر هو الذي يدله الله على هذه التجارة، ثم يتقاعس عنها أو يحيد.

لقد طالعتنا السورة في بدايتها على حال من سألوا وقت حماسهم واندفاعهم عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، ثم نكصوا عن أدائها وضعفوا؛ فعاتبهم الله أشدَّ العتاب؛ وهنا في آخر السورة؛ يحتاط الله تعالى لحملة المنهج الجديد أن تضعف نفوسهم، أو يهبط اندفاعهم؛ أو يكلَّ جهدهم؛ فيختم السورة بنداء يستنهض به همة المؤمنين بالدين الجديد، الأمناء على منهج الله في الأرض، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية؛ يستنهض همتم لنصرة الله، ونصرة دينه فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)**﴾، يقول لهم: انتدب عيسى u الحواريين ليكونوا أنصار الله لوقت مؤقت محدود؛ فقالوا: ﴿**نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ**﴾، وما أجدر أتباع محمد ﷺ أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم، ويكونوا أنصار الله تعالى.

سورة الجمعة

تعالج سورة الجمعة الموضوع الذي عالجته سورة الصف قبلها؛ ولكن بأسلوب آخر، ومؤثرات جديدة، إنها تقرر في أخلاد الجماعة المسلمة أنها الجماعة المختارة لحمل أمانة العقيدة في الأرض، ومنهج الله في صورته الأخيرة؛ وذلك بعد أن نكل بنو إسرائيل عن حمله، وصاروا يحملون التوراة، كالحمار يحمل أسفارًا، لا يدرك وظيفتَها، ولا يقوم بأمرِها؛ فناط الله حمل المنهج والقيام به في الأرض بالثلة التي كانت حول رسول الله ﷺ في المدينة، وبمن يأتي بعدهم ممن أشارت إليهم السورة، وتعالج السورة بعض الحالات التي كانت تقع من بعض الصحابة، من موروثات البيئة والعرف، كالحرص على المال وربحه؛ لأنها من الملهيات عن حمل المنهج والأمانة الكبرى، وتشير إلى انفضاضهم عن رسول الله ﷺ إلى القافلة، وهو قائم يخطب فيهم، وفي السورة دعوة لليهود إلى تمني الموت بعد أن زعموا أنهم شعب الله المختار، وأن بعثة الرسول لا تكون في غيرهم، كما سيأتي.

تبدأ السورة بتقرير حقيقة تسبيح كل ما في الوجود لله تعالى؛ فتقول: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾، ثم تذكر من أسماء الله تعالى ما له علاقة لطيفة بموضوع السورة، التي اسمها الجمعة، فتذكر: ﴿**الْمَلِكِ**﴾ الذي يملك كل شيء؛ حتى التجارة التي يسارعون إليها، ويتركون نبيهم ﷺ قائماً يخطب، وبمناسبة ذكر اللهو، والانصراف عن ذكر الله؛ تذكر السورة اسم الله: ﴿**الْقُدُّوسِ**﴾ الذي يتوجه إليه كل من في السماوات والأرض بالتقديس والتنزيه، وبمناسبة دعوة اليهود لتمني الموت، وتقرير حقيقة الموت؛ تذكر اسم الله: ﴿**الْعَزِيزِ**﴾، وتذكر اسمه: ﴿**الْحَكِيمِ**﴾ بمناسبة اختيار الأميين ليبعث فيهم رسوله، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وبعد ذلك يبدأ الموضوع الذي تعالجه السورة.

يقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الجمعة: ٢، ٣]، استجاب الله تعالى دعوة نبيّه إبراهيم عليه السلام؛ فاختار العرب الأميين، الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وبعث منهم النبي، الذي يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وذلك بعد أن علم ﷻ أن يهود قد فرغ عنصرُها من مؤهلات القيادة الجديدة للبشرية، وأنها قد زاغت وضلت، ولم تعد تصلح لحمل أمانة العقيدة في الأرض، ولقد سجل القرآن دعوة إبراهيم وابنه إسماعيل وهما يبنيان البيت فقال: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٩]، كانت تلك الدعوة محفوظة عند الله من وراء الغيب والقرون لم تضع؛ حتى جاء

موعدها المقدور لها في علم الله تعالى، وفق حكمته؛ لتؤدي دورها المرسوم لها في الكون حسب تدبير الله وقدره، وقد تحققت الدعوة بنصها الذي تعيده السورة هنا بألفاظ إبراهيم: ﴿**رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ وذُكِرتْ صفةُ الله تعالى في دعاء إبراهيم إذ قال: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾؛ ذُكرتْ هنا في سورة الجمعة بعد التذكير بفضل الله ومنَّته على الأميين: ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾، وقد سئل ﷺ عن نفسه فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور، أضاءت له قصور الشام»[1]، وقد اختار الله تعالى تلك الأمة البدوية في شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين، بما علم في نفوسها، وفي ظروفها من قابلية للاستصلاح، وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء؛ فأرسل فيها الرسول الخاتم، يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب؛ فيصبحون أهل كتاب، ويعلمهم الحكمة؛ فيدركون حقائق الأمور، ويحسنون التقدير، ويزكيهم أي يطهر عقائدهم من الشرك، ويعلمهم التوحيد، ويطهر سلوكهم وعملهم، وحياتهم الزوجية والاجتماعية؛ فترتفع نفوسهم عن رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني؛ بعد أن كانوا ﴿**لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾، ضلالٌ ذكره جعفر بن أبي طالب للنجاشيﷺ، أمام عمرو بن العاص لمَّا بعثته قريش ليكرّه النجاشي بالمهاجرين المسلمين؛ فقال جعفر ﷺ: "أيها الملك: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام"، ومع هذا الضلال والجاهلية؛ اختارهم الله تعال لحمل أمانة العقيدة في الأرض، بما علم في نفوسهم من استعداد للخير والصلاح؛ بعد أن فرغت منه نفوس اليهود، التي أفسدها الذل الطويل في مصر؛ فلم تستقم لا في حياة موسى عليه السلام ولا بعده؛ فانتزع الله من أيديهم أمانة القيام على دينه في الأرض إلى يوم القيامة؛ واختار لحمل الأمانة أيضًا آخرين من غير العرب، وآخرين من غير الجيل الذي نزلت فيه الآيات؛ فقال تعالى: ﴿**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ لأن هذه الأمة موصولة الحلقات، ممتدة في شعاب الأرض، وفي شعاب

---

(١) رواه **أحمد** برقم: ١٧١٦٣، شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

الزمان، تحمل هذه الأمانة الكبرى، وتقوم على دين الله، القادر على الاختيار، العليم بمواضع الاختيار؛ لأنه: ﴿**الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾، وإن هذا الاختيار من الله تعالى للأميين، ولمن يأتي بعدهم لحمل أمانة العقيدة في الأرض، وليكونوا المركز الذي تتصل فيه السماء بالأرض؛ لفضلٌ لا يعدله فضل ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الجمعة: ٤]، فضل عظيم، يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه، وماله، وحياته، ويربى على متاعب الطريق، وآلام الكفاح، وشدائد الجهاد.

ثم تأتي الآيات لتذكر أن اليهود قد انتهى دورهم في حمل أمانة الله في الأرض؛ إذ لم تعد لهم قلوب حية واعية متجردة تحمل هذه الأمانة في الأرض ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة: ٥]، لقد حُمِّل بنو إسرائيل التوراة فلم يحملوها؛ لأن حملها يبدأ بالإدراك والفهم، وينتهي بالعمل في عالم الواقع، وسيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن لا تدل على أنهم قدروا الأمانة، ولا أنهم فقهوا حقيقتها، ولا عملوا بها، فكانوا كالحمار، يحمل الكتب الضخام، ليس له منها إلا ثقلها، وهذ صورة رزية بائسة، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة: ﴿**بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾، ومِثلُ اليهود الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها؛ كلُّ الذين حملوا أمانة العقيدة من هذه الأمة ثم لم يحملوها؛ لا سيما الذين يقرأون القرآن والكتب، ولا ينهضون بما فيها، أولئك كلهم كالحمار يحمل أسفارًا؛ لأن المسألة ليست كتبًا تحفظ وتدرس؛ إنما مسألة فقه وعمل بما في تلك الكتب.

ولمَّا زعم اليهود –وما يزالون– أنهم شعب الله المختار، وأنهم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين؛ تحدَّاهم الله تعالى أن يدعوا على أنفسهم بالموت؛ إن كانوا صادقين فيما زعموه؛ فقال: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الجمعة: ٦]، ولكنهم لم يفعلوا؛ لأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه، وما يرجون الثواب والقربى عليه، إنما قدموا المعصية، التي تخيفهم من الموت، وما وراءه، والذي لم يقدم الزاد؛ يَجْفُلُ من ارتياد الطريق ﴿**وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾، ثم يقرر القرآن حقيقة الموت، وأنه لا مفر منه ولا مهرب، وأن الحساب بعده حتم لا ريب فيه: ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجمعة: ٨]، وهي لفتة موحية من لفتات القرآن للمخاطبين بهذه الآية ولغيرهم، تقر في النفوس حقيقة ينساها الناس، وهي تلاحقهم أينما كانوا، تقول لهم: إن هذه الحياة إلى انتهاء، وإن البعد فيها عن الله ينتهي بالرجعة إليه.

ثم يجيء المقطع المتعلق بصلاة الجمعة؛ بعد أن انفضَّ أكثر الصحابة عن رسول الله ﷺ وهو قائم يخطب ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)**﴾ [الجمعة: ٩ - ١١]، وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة، والحث عليها، والاستعداد لها بالغسل، والثياب والطيب، فمن ذلك: ما رواه الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج يأتي المسجد، فيركع إن بدا له، ولم يؤذ أحدًا، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى»، وتأتي الآية الأولى من هذا المقطع الأخير في السورة؛ فتأمر المسلمين أن يتركوا البيع بمجرد سماع الأذان، وترغبهم في الانخلاع من شؤون المعاش، والدخول في ذكر الله في هذا الوقت فتقول: ﴿**خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾، ولا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش، ويخلو إلى ربه، ويتجرد لذكره، ويتذوق الطعم الخاص للتجرد، والاتصال بالملأ الأعلى، وبعد ذلك يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾، وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي، التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض، من عمل وكدٍّ، وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو، وانقطاع القلب وتجرده للذكر، وهي ضرورة لحياة القلب، لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي، والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى، وكان عراك بن مالك ﷺ إذا صلى الجمعة؛ انصرف فوقف على باب المسجد فقال: "اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني؛ فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين"، ومثل هذا الإدراك الجاد الصريح هو الذي ارتقى بتلك الجماعة المسلمة؛ حتى بلغت ما بلغت في تاريخ البشرية، مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية، مما تصوره الآية الأخيرة في السورة ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)**﴾، قال جابر ﷺ: «بينا نحن نصلي مع النبي ﷺ؛ إذ أقبلت عيرٌ تحمل طعامًا، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا، منهم أبو بكر وعمر ﷺ؛ فنزلت: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا**﴾، وهي حادثة تكشف عن مدى الجهد الذي بُذل في تربية تلك الجماعة الأولى؛ حتى صارت ذلك النموذج

الفريد في تاريخ الإسلام، وفي تاريخ البشرية جميعًا، وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس، في أي جيل من الأجيال؛ لتكوين الجماعة المسلمة، التي تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة، وتحاول تحقيقها في عالم الواقع، كما حققتها الجماعة الأولى؛ لأن النفس البشرية قابلة أن تصعد مراقي العقيدة، والتطهر والتزكي، مع الصبر والفهم، والإدراك والثبات، والمثابرة وعدم النكوص من منتصف الطريق.

لا تكاد سورةٌ مدنيةٌ تخلو من ذكر المنافقين، إما تلميحًا أو تصريحًا، ذلك أن حركة النفاق بدأت بدخول الإسلام المدينة، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله ﷺ، وشَغلت حركتُهم تلك قدرًا كبيرًا من جهد المسلمين ووقتهم؛ ولذا ورد ذكرهم كثيراً في السور المدنية، وفي أحاديث رسول الله ﷺ؛ الأمر الذي يدل على ضخامة حركتهم، وأثرهم البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين، وتأتي سورة المنافقين هذه وتكاد تكون مقصورةً على الحديث عنهم، والإشارة إلى بعض الأحداث والأقوال التي وقعت منهم، ومن ثمَّ تشن حملةً على أخلاقهم، ودسائسهم، وما انطوت عليه نفوسهم، من الكيد للمسلمين، والجبن وعمى البصيرة، وليس في السورة إلا لفتة تحذر فيها المؤمنين من كل ما يلتصق بهم من صفات المنافقين، كالغفلة عن ذكر الله تعالى، والانشغال بالأموال والأولاد، والتقاعس عن الإنفاق في سبيل الله(١).

يقول تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [المنافقون: ١، ٢]، تبدأ السورة بتكذيب الله تعالى للمنافقين في شهادتهم برسالة رسول الله ﷺ، وأنهم لم يقصدوا وجهَ الحق بشهادتهم تلك؛ وأنهم إنما جاؤوا ليخدعوا المسلمين بها؛ ففضحهم الله بهذه الآيات؛ بعد التحفُّظ، الذي يثبت حقيقة الرسالة ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**﴾... ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾، والآيات توحي بأنهم كانوا يحلفون الأيمانَ كلما انكشف أمرهم، أو كاد ينكشف، فيجعلون من أيمانهم تلك جنَّةً يتَّقون بها ما يترتب على افتضاح أمرهم؛ ليواصلوا كيدهم، وإغواءَهم للمخدوعين فيهم ﴿**فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، صدوا أنفسهم وغيرهم، مستعينين بتلك الأيمان ﴿**إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾،وعِلَّة أفعالهم تلك أنهم: ﴿**آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا**﴾ عرفوا الإيمان، ثم اختاروا العودة إلى الكفر؛ لأن قلوبهم قد خلت من الفقه والذوق والحياة، واستساغت الكفر الكالح، المجدب الكنود ﴿**فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾، وحتى تنكشف حقيقتهم أكثر وأكثر؛ ترسمُ لهم السورة صورةً فريدةً مبدعةً، تثير السخرية والهزء بهم، وتسمهم بالفراغ والجبن، والفزع والحقد؛ بل إنها تنصبهم تمثالاً وهدفاً للسخرية فتقول: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ**

---

(١) أورد سيد قطب في مقدمة تفسيره للسورة كلامًا مقتبسًا عن المنافقين من كتاب: (**سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم**) لمحمد عزة دروزة؛ آثرت عدم ذكره، والاكتفاء بالإشارة إليه.

مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، فهم أجساد تعجب العيون ما داموا صامتين؛ أما حين يتكلمون فهم خواء من كل معنى، كالخشب المُسنَّدة، لا حركة فيها ولا حس، إنما هي ملطوعة بجانب الجدار، وهم مع ذلك في توجس دائم، واهتزاز دائم، يعرفون أنهم منافقون، مستورون بستار رقيق من الحلِف والمَلَق الكاذب؛ لذا فهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرُهم قد افتُضح، وسترُهم قد انكشف **﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾** ترسمهم الآية متلفتين حواليهم، متوجسين من كل حركة وصوت، يظنونها تطلبهم، أو عرفت حقيقتهم، بينما هم خشب ملطوعة؛ إذا ما كان الأمر أمرَ فقه وشعور بالإيمان، وهم بحالهم هذا يمثلون العدو الأول لرسول الله ﷺ وللمسلمين **﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾** العدو الكامن داخل المعسكر المسلم، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح **﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾**، ولما لم يؤمر هنا رسول الله ﷺ بقتلهم؛ أخذهم بخطة فيها حكمة، وثقة بالنجاة من كيدهم، كما سيأتي، **﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾** ودعاء الله عليهم بالقتل قضاءٌ نافذٌ، لا رادَّ له، ولا معقبَ عليه، وهو الذي كان نهاية المطاف.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٥ – ٨]، ذكر غير واحد من السلف أن هذه الآيات نزلت في عبد الله بن سلول رأس المنافقين، وفصَّل ذلك ابن إسحاق في حديثه عن غزوة بني المصطلق فذكر: أن رسول الله ﷺ كان بعد الغزوة على ماء المريسيع، ووردت واردة الناس عليه، وممن ورد: عمر بن الخطاب، ومعه أجير له من غفار يقال له: جهجاه؛ فازدحم جهجاه وسنانَ الجهني، حليف بني عوف ابن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصاح الجهني: يا معشر الأنصار، وصاح جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن سلول، وقال: أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش[1] إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كلبَك يأكلْكَ! أما والله لئن رجعنا

(١) **الجلابيب**: اسمٌ كان يلقب به المنافقون أصحابَ رسول الله ﷺ المهاجرين.

إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم؛ لتحولوا إلى غير داركم؛ فسمع ذلك زيد بن أرقم؛ فمشى به إلى رسول الله ﷺ؛ فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب؛ فقال: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها؛ فارتحل الناس، وقد مشى ابن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه؛ فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفاً عظيماً؛ فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل؛ حدباً على ابن سلول، ودفعاً عنه، قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله ﷺ وسار؛ لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة، وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحتَ في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال «عبد الله بن أُبي» قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُ منها الأذلَّ؟» قال: فأنت يا رسول الله والله لتخرجنَّه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فو الله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز؛ ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً! ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض؛ فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبي، ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن سلول، ومن كان على مثل أمره؛ فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأُذن زيد بن أرقم، ثم قال: «هذا الذي أوفى لله بأذنه»، ولمَّا بلغ عبدَ الله بن عبدِ الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه؛ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه؛ فإن كنت لا بد فاعلاً؛ فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»، وجعل بعد ذلك ابن سلول إذا أحدث الحدث؛ كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه،

ويعنفونه؛ فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتُه يوم قلت لي اقتله؛ لأرعدت له آنفٌ لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته» فقال عمر ﷺ: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وذكر عكرمة وغيره أن الناس لمَّا قفلوا عائدين؛ وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة، واستلَّ سيفه؛ حتى جاء أبوه؛ فقال له وراءك، فقال: مالك؟ ويلك! فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل! فلما جاء رسول الله ﷺ؛ شكا إليه ابن أُبي ابنَه؛ فقال ابنُه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له؛ فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجُزِ الآن.

كانت الأحداث تجري كما يرسمها القدر لحِكمٍ وغايات، يريد الله تعالى أن يربي بها تلك الجماعة المختارة، والأمةَ من بعدهم، وحادثة عبد الله بن أُبي هذه، وابنه عبد الله، وتعامل رسول الله ﷺ معها؛ هي وحدها موضع عبر وعظات جمَّة، فالمنافقون كانوا مندسين في الصف المسلم، يعيشون فيه في حياة رسول الله ﷺ قرابة عشر سنوات، ورسول الله ﷺ لا يخرجهم منه، ولم يعرِّفهم الله لنبيِّه ﷺ بأسمائهم وأعيانهم، إنما كان رسول الله ﷺ يعرفهم بلحن القول، بكيدهم ودسائسهم؛ وذلك كي لا يكل الله قلوب الناس للناس، فالقلوب لله وحده، هو الذي يعلم ما فيها، ويحاسب عليه، أما الناس فلهم الظاهر فقط، ولا يجوز لهم أن يأخذوا الناس بالظنة، ولا بالفراسة، ولمَّا عرَّف الله نبيَّه ﷺ أواخر حياته بأسماء المنافقين؛ لم يخرجهم رسول الله ﷺ من الجماعة وهم يظهرون الإسلام، ويؤدون فرائضه، إنما عرَّف بهم حذيفة بن اليمان ﷺ، ولم يُشعْ ذلك بين المسلمين، لكنه ﷺ لم يكن يصلي عليهم، فكان المنافق يُعرف من ترك رسول الله ﷺ الصلاةَ عليه، وبعده كان يُعرف بترك حذيفة ﷺ الصلاةَ عليه.

ابن سلول عاش قريبًا من رسول الله ﷺ في فيض الإسلام، ومدِّه في يثرب، يشهد الأحداث المتتالية، والآيات الدالة على حقيقةِ هذا الدين، وصدْقِ رسوله ﷺ، ولكن كفَّته عن الهداية إليه إحنةٌ في صدره؛ أن لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج، وكان ابنه عبد الله نموذجاً رفيعاً للمسلم المتجرد الطائع، يشقى بأبيه، ويضيق صدره بأفاعيله، ويخجل من مواقفه؛ ولكنه يكنُّ له ما يكنه الولد البار العطوف، يسمع أن رسول الله ﷺ يريد قتل أبيه؛ فتختلج في قلبه عواطف ومشاعر متباينة، يواجهها في صراحة وقوة؛ فيلجأ إلى رسول الله ﷺ؛ ليعينه على تلك الخلجات، ويرفعَ عنه العنت الذي يلاقيه؛ فيطلب منه إن

كان لا بد فاعلاً أن يأمره هو بقتل أبيه، وهو يأتيه برأسه، كي لا يتولى ذلك غيره، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض؛ فيقتله؛ فيقتل مؤمناً بكافر؛ فيدخل النار، ويرى رسولُ الله ﷺ هذه النفس المؤمنة المحرجة؛ فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة ويقول: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»، وبعد ذلك يقف عبد الله على باب المدينة فلا يسمح لأبيه بالدخول إليها؛ إلا بإذن رسول الله ﷺ؛ ليتقرر بالتجربة الواقعية من هو الأعز، ومن هو الأذل، وهي والله قمَّةٌ سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال، وهم بشر، فيهم ضعف البشر، وعواطف البشر وخواجلهم، وهذا أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة، حين يدركها الناس على حقيقتها، فيصبحون هم حقيقتُها، تدب على الأرض في صورة بشر، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق.

ثم تتابع السورة الحديث عن صفات أولئك المنافقين فتقول: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**﴾ وبعد أن ينكشف أمر المنافقين لرسول الله ﷺ؛ يحلفون الأيمان كذباً أنهم ما فعلوا، وإذا قال لهم قائل: تعالوا يستغفر لكم رسول الله؛ لووا رؤوسهم ترفعاً واستكباراً، وهذه صفات ملازمة للنفس المنافقة، وبعدها يأتي الخطاب لرسول الله ﷺ بشأنهم: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ ثم تحكي الآيات طرفاً من فسقهم الذي استوجب قضاء الله فيهم فتقول: ﴿**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا**﴾ قولةٌ يتجلى فيها خبث الطبع، وهي خطة التجويع التي يتواصى بها خصوم الإيمان على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة والدين، كانت خطة قريش في حصار بني هاشم في الشعب؛ لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ، وهي خطة المنافقين كما تحكيها السورة هنا؛ لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عن نصرته تحت وطأة الجوع، وكانت خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين؛ ليموتوا جوعاً، أو يكفروا بالله تعالى، وهي خطة كلِّ الذين يحاربون الدعوة إلى الله تعالى، يسدُّون أسباب العمل والرزق على الدعاة، وهكذا يتوافى على هذه الخطة الخسيسة كل خصوم الدين من قديم الزمان، إلى هذا الزمان، ناسين الحقيقة التي يذكرهم القرآن بها فيقول: ﴿**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ ومن تلك الخزائن يرتزق هؤلاء، الذين يحاولون التحكم بأرزاق المؤمنين، فليسوا هم من يرزقون أنفسهم، وما أغباهم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين، وبهذه الحقيقة يثبّتُ الله المؤمنين لمواجهة خطة التجويع الخسيسة، التي لا يمارسها إلا أخس الأخساء،

وألأم اللؤماء، فخزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع، والذي يعطي أعداءه، لا ينسى أولياءه، ثم كانت قولة المنافقين الأخيرة: ﴿**لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**﴾، وقد وقفنا على أن الأذل لم يدخلها إلا بإذن الأعز ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ وهذا تكريم هائل كبير، أن يضم الله رسولَه والمؤمنين إلى جانبه، ويقول: ها نحن أولاء، وهذا لواء الأعزاء، وصدق الله فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، تُستمدُّ من عزته تعالى، فلا تلين، ولا تهن ﴿**وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة، ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟

ثم يأتي النداء الأخير في السورة لهؤلاء الذين أوقفهم الله في صفه مع رسوله ﷺ، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم، ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)**﴾ [المنافقون:٩ - ١١] الأموال والأولاد ملهاةٌ ومشغلة؛ إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفاً أعلى، يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، والله قد منح العبد الأموال والأولاد؛ ليقوم بالخلافة في الأرض، لا لتلهيه عن ذكر الله، ومن ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ﴿**فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ ومن يخسر نفسه، فقد خسر كل شيء؛ مهما ملك من مال، ومن أولاد.

وتختم السورة بلمسات متنوعة، تحضُّ المؤمنين على الإنفاق من رزق الله الذي آمنوا به، قبل أن يأتيهم الموت؛ فيتركوا كل شيء وراءهم لغيرهم، ومن لم يجد بين يديه شيئًا؛ تمنى أن لو كان قد أُمهل؛ ليتصدق، وليكون من الصالحين، وأنى له هذا؟ ﴿**وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

سورة التغابن

سورة التغابن من السور التي اختُلف في مكان نزولها، فقيل إنها مكية، وقيل إنها مدنية، والراجح أنها سورة مدنية، والذي جعل بعض المفسرين يقول بمكيَّتها؛ أن الجو المدني لا يكاد يتبين إلا في فقراتِها الأخيرة، تلك الفقرات التي جاءت تحضُّ المؤمنين على الإنفاق، وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد، وترد كل الأمور إلى قدر الله تعالى؛ أما مطلع السورة فيستهدف بناء أسس العقيدة بأسلوب السور المكية، التي كانت تواجه الكفار المشركين ابتداءً.

مقطع السورة الأول يستهدف بناء التصور الإيماني الكوني، ويعرض حقيقة الصلة بين الخالق وهذا الكون الذي خلقه، ويقرر حقيقةَ بعض صفات الله، وأسمائه الحسنى، وأثرها في الكون، وفي الحياة الإنسانية؛ فيقول: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)**﴾ [التغابن: ١ – ٤]، هذا التصور الكوني الإيماني هو أدق تصور عرفه المؤمنون في تاريخ العقيدة وأوسعه، ونحن نؤمن أن الرسالاتِ السماوية كلَّها جاءت بوحدانية الله تعالى، وأن خالق الكون وما فيه اللهُ وحده، وأنه هو الذي يرعاه، حكى القرآن ذلك عن الرسل والرسالات، ولا عبرة بما جاء في بعض الكتب السماوية المفتراة، التي يخالف مضمونها هذا الاعتقاد ويكذبه؛ لأنه تحريف طارئ، لا من أصل الديانة، فدين الله واحد، ويستحيل أن ينزل الله ديناً يخالف تلك القواعد، أو يكذبها؛ ولكن ذلك لا ينافي أن يكون التصور الإسلامي عن الذات الإلهية، وعن الكون والحياة؛ أوسع وأدق وأكمل، من كل تصور سابق في الديانات الإلهية، وهذا الذي يتفق وطبيعة الرسالة الخاتمة، والرشد البشري، الذي جاءت الرسالة تخاطبه، وتنشئ فيه هذا الاعتقاد الشامل، بكل مقتضياته وآثاره.

إن من شأن هذا التصور الواسع الشامل أن يدرك معه القلب حقيقة الألوهية وعظمتها، ويشعر بالقدرة الإلهية التي يرى آثارها في الكون، محيطة بكل شيء، لا يندُّ عنها شيء، سواء في ذلك الصغير والكبير، والجليل والحقير، وهذا الإدراك يجعل القلب يعيش في حساسية مرهفة، وخشية وارتقاب، وطمع

ورجاء؛ ليمضي في الحياة متعلقاً بالله، شاعراً بقدرته وعلمه، وقهره وجبروته، ورحمته وفضله، مستشعراً أن الوجود كلَّه من حوله يتجه إلى الله خالقه، مسبحاً بحمد ربه؛ فيشاركه تسبيحه، مُدبَّراً بأمره وحكمته؛ فيخضع لشريعته وقانونه.

﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ قلبُ هذا الوجود مؤمن بالله، وروح كل شيء فيه مؤمنة؛ ولذا كل من فيه يسبح بحمد الله، المالك لكل شيء، والإنسان الذي يقف في خضم هذا الوجود المسبح لله كافرَ القلب، لا يسبح ربه، ولا يتجه إليه؛ فإنما يكون شاذاً بارز الشذوذ، منبوذاً من كل موجود، وإن المؤمن إذ يركن إلى الله ويسبحه؛ فإنما يركن إلى القدرة التي تفعل ما تشاء، وتحقق ما تريد، بلا حدود ولا قيود؛ ذلك أن الله على كل شيء قدير، وهذا الاعتقاد والتصور؛ فرع عن التصور الإيماني الكبير، عن الكون وخالقه.

﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾، عن إرادة الله وقدرته صدرَ هذا الإنسان، وميَّزه الله من بين خلقه فأودع فيه إمكانَ الاتجاه إلى الكفر، وإمكان الاتجاه إلى الإيمان، ثم أناط به حمل الأمانة الثقيلة في الأرض، وأمدَّه بالميزان الذي يزن به أعماله؛ أمدَّه بالدين الذي جاءت به رسل الله وأنبياؤه، والله من وراء ذلك رقيب على أعماله، بصير بحقيقة نيَّته واتجاهه.

﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾، صَدْرُ هذه الآية يقرُّ في شعور المؤمن أن الحق أصيل في هذا الكون، ليس عارضاً ولا نافلة، والذي أقرَّ هذا الحق هو الله خالق الكون، ومن شأن ذلك أن يمنح المؤمن ثقة وطمأنينة في الحق الذي يقوم عليه دينه، ويقوم عليه الوجود من حوله، وأنه حق لا بد ظاهر، ولا بد باقٍ مستمر؛ بعد زبد الباطل ونهايته.

الحقيقة الثانية في الآية تشعر الإنسان بكرامته على الله تعالى، وبفضل الله عليه في تحسين صورته، صورته الخَلْقية، وصورته الشعورية، فهو أكمل المخلوقات في تكوينه الجثماني، وأرقاها في تكوينه الشعوري، واستعداده الروحي؛ ولذا وكلت إليه الخلافة في الأرض، وأقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه، وإن نظرةً فاحصةً في الهندسة العامة لتركيب الإنسان؛ تثبتُ هذه الحقيقة ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ فهي هندسة اجتمع فيها الجمال والكمال، والجمال يتفاوت بين شكل وشكل؛ ولكن التصميم في ذاته جميل،

ووافٍ بكل الوظائف والخصائص، التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء، ثم إن مصير هذا الكون، وهذا الإنسان إلى الله، المحيط بكل شيء ﴿**وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾.

﴿**يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ إن استقرار هذه الحقيقة في قلب المؤمن؛ تجعله يحيا حياةَ الشاعر بأنه مكشوف كلُّه لعين الله، فليس له سرٌّ يخفى عليه، وليس له نيَّةٌ غائرة في الضمير لا يراها الله؛ لأنه سبحانه ﴿**عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ والآيات التي سبقت تجعل المؤمن يدرك حقيقة وجوده، ووجود الكون كله، وصلته بخالقه، وأدبه مع ربه، وخشيته وتقواه، في كل حركة، وكل اتجاه.

ثم يأتي المقطع الثاني من السورة يذكر المشركين بمصير الغابرين، من المكذبين بالرسل والبينات، ويحذرهم عاقبتهم؛ فيقول: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)**﴾ [التغابن: ٥، ٦]، يلفت أنظارهم بهذا الاستفهام الذي بدأ به المقطع، إلى أنباء بعض الأمم الهلكى، كعاد وثمود وقرى لوط، التي كانوا يمرون عليها في رحلاتهم للشمال والجنوب، ويضيف إلى تلك الأخبار التي يعرفونها عنهم في الدنيا؛ أن لهم في الآخرة ﴿**عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾، ثم يكشف لهم سبب ذلك العذاب الذي نالهم في الدنيا والآخرة، وأنه نفسه الاعتراض الذي يعترضون به على رسول الله الذي جاءهم فَقَالُوا: ﴿**أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا**﴾، وهو اعتراض فجٌّ، ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة، وأنها منهج للبشر، ولا بدَّ أن تتمثل واقعاً في البشر، يكون بشخصه ترجماناً لها؛ فيصوغ الآخرون أنفسَهم على مثاله بقدر ما يستطيعون، ولا ينعزل هو عنهم بجنسه، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية، يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم، وفي حياتهم ومعاشهم.

وقولهم: ﴿**أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا**﴾ ناتج عن الجهل بطبيعة الإنسان أيضاً، وقدرته أن يتلقى رسالة السماء ويبلغَها، دون حاجة إلى أن يحملها ملك إلى الناس، كما كانوا يقترحون؛ ذلك أن في الإنسان نفخة من روح الله تعالى، تهيِّؤه لاستقبال الرسالة من الله، وأدائها كاملة كما تلقاها.

وينطوي قولهم ذلك على تعنت واستكبار كاذب عن اتباع رسولٍ منهم، وكأن في اتباعهم له غضَّاً من قيمتهم، فجائز في عرفهم اتباع رسولٍ من خلق آخر بلا غضاضة، أما اتباع رسولٍ منهم فهو في

نظرهم حِطَّة من قيمتهم؛ ولذا كفروا وتولوا عن الرسل معرضين متكبرين ﴿**وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ استغنى الله عنهم وعن إيمانهم وطاعتهم؛ وما هو سبحانه بمحتاج إلى شيء منهم.

ويأتي المقطع الثالث تتمة للمقطع الثاني، يحكي تكذيب مشركي مكة بالبعث، ويوجه رسول الله ﷺ لتأكيد أمر البعث لهم، ويصور مشهد القيامة، ومصير المكذبين به، ويدعو لطاعة الله ورسوله، ويردُّ كل شيء لله فيما يقع في الحياة؛ فيقول: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣)**﴾ [التغابن: ٧، ١٣].

أول كلمة في المقطع تقضي بتكذيب المشركين في قولهم بعدم البعث فتسميه: زعماً، ثم توجه الآيات رسول الله ﷺ ليؤكد لهم البعث بأوثق توكيد، وهو الحلف بالله، وليس بعد حلف رسول الله ﷺ توكيد ﴿**قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ**﴾... ﴿**ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ**﴾ فليس شيء من عملكم بمتروك، فالله أعلم به منكم ﴿**وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾، وفي ظل هذا التوكيد يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، وبالنور الذي نزل عليه، وهو هذا القرآن، والدين الذي بشَّر به هذا القرآن، فهو نور في حقيقته؛ لأنه من عند الله تعالى، ونور في آثاره؛ لأنه ينير القلب فيشرق بذاته، ويبصر الحقيقة الكامنة في ذاته ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا**﴾ ويعقب هذه الدعوة بما يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله، لا يخفى عليه منهم شيء ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾.

ثم تعود الآيات بعد هذه الدعوة إلى استكمال مشهد القيامة فتقول: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾ فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق في جميع الأجيال تبعث فيه وتجمع، والملائكة الذين لا يعلم عددهم إلا الله تعالى من بين الجمع يوم الجمع، وفي مشهد من مشاهد يوم الجمع يكون

التغابن، فيفوز المؤمنون بالجنة ونعيمها، ويحرم الكافرون من كل شيء، ويصيرون إلى الجحيم، فكأنما هما في سباق، فاز في نهايته فريق بكل شيء، وحرم فريق من كل شيء، فهو تغابن بهذا المعنى المتحرك، تفسره الآيات بعده: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾، وبعد هذا تقرر الآيات قاعدة من قواعد الإيمان بالقدر، وهي ردُّ كل شيء إلى الله ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ وهذا جانب ضخم، ينشئه الإسلام في ضمير المؤمن، فيحس يدَ الله في كل حدث وحركة؛ فيطمئنَّ قلبُه ويهتدي؛ فيصبر على الضراء، ويشكر على السراء، وربما تسامى فوق ذلك فشكر في السراء والضراء؛ إذ يرى فيهما فضلَ الله ورحمتَه بالتنبيه، أو بالتكفير، أو بترجيح ميزان الحسنات، وفي الحديث: «عجباً للمؤمن! لا يقضي الله قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

ثم تتابع الآيات دعوتهم للإيمان؛ فتدعوهم لطاعة الله ورسوله، وتبين لهم بعد أن عرضت مصير الغابرين أن رسول الله ﷺ مبلغ، وليس بعد البلاغ وإقامة الحجة؛ إلا ما ينتظرهم من عاقبة المعصية والتولي: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾، ويختم المقطع بتقرير حقيقة التوحيد، التي ينكرونها؛ فيقول: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، ومقتضى هذه الحقيقة أن يكون التوكل على الله وحده سبحانه.

وفي نهاية السورة يتوجه الخطاب للمؤمنين ببعض التوجيهات، على أولها الحذر من فتنة الأزواج والأولاد والأموال، ثم تقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة؛ فتقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)**﴾ [التغابن: ١٤ – ١٨]، روى الترمذي: أن ابن عباس ﷺ سئل عن الآية الأولى من هذا السياق فقال:

"فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله ﷺ؛ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿**وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾"، ومع ما جاء في سبب نزول هذه الآية؛ فإنها أشمل، وأبعد مدىً، وأطول أمداً، فالتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً؛ يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية، ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي، وفي ملابسات الحياة سواء، فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان؛ اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم؛ لو قام المؤمن بواجبه، فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل، فصاروا بذلك عدواً له؛ لأنهم صدوه عن الخير؛ ومن ثمَّ اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة، التحذير من الله؛ لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات.

ثم كرر التحذير أخرى من فتنة الأموال والأولاد؛ فقال: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾، فهم فتنة بمعنى: اختبار من الله لكم؛ فانتبهوا، وفتنة توقعكم في المخالفة والمعصية؛ فاحذروها أن تبعدكم عن الله، وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي بريدة يقول: «كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين ﷺ، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران؛ فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»، فهذا رسول الله ﷺ، وهذان ابنا بنته، ولا يصبر أن يراهما يعثران، فهو أمر خطير، والتحذير منه ضرورة يقدرها من خلق القلوب، وأودعها هذه المشاعر؛ كي لا تتمادى ولا تفرط في انجذابها إليهم؛ فتكون العداوة، ويعدهم الله على الصبر على تلك الفتنة أجرًا عظيمًا.

ثم تهتف الآيات للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاعة والاستطاعة ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا**﴾ وفي هذا القيد: ﴿**مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ يتجلى لطف الله بعباده، وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»، يقبل الله من الطاعة ما يُستطاع، أما النهي فلا تجزئة فيه، بل يطلب بكامله، ثم يهيب بهم إلى الإنفاق ﴿**وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ**﴾ فهم ينفقون لأنفسهم وذواتهم، ويعدهم عليه الخير حين يفعلون،

ويريهم شحَّ النفس بلاءً ملازماً، السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾، ثم تمضي الآيات في إغرائهم بالإنفاق؛ فتسميه قرضاً لله، يضاعفه ويغفر به: ﴿**إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾ وتبارك الله ما أكرمه، وما أعظمه، وهو ينشئ العبد، ثم يرزقه، ثم يسأله فضل ما أعطاه قرضاً يضاعفه، ثم يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه، ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه، يا لله!

ثم يختم هذه الجولة بصفة الله، التي بها الاطلاع والرقابة على القلوب: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ وهي تشعر الخلق بأن عين الله تراهم، وأن سلطانه عليهم، وأن حكمته تدبر الأمر كله، حاضره وغائبه؛ فيحملهم ذلك على تقواه، والإخلاص له، والاستجابة لأمره.

سورة الطلاق

يقف الإنسان مدهوشًا أمام هذه السورة، سورة الطلاق، وهي تبين أحكامه، وتفصل في حالات لم تُفصَّل في سورة البقرة، فسورة الطلاق تبين الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله الله تعالى، وتبينُ حقَّ الزوجة في البقاء في بيت الزوجية، لا تَخرج منه ولا تُخرج؛ إلا أن تأتي بفاحشة، وتبينُ حقَّ المطلقة بعد انقضاء عدتها في الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء؛ ما لم يكن الزوج قد راجعها فترة العدة، لا عن ضرر ولا إيذاء، وكانت سورة البقرة قد بيَّنت مدة العدة للمطلقة ذات الحيض، وجاءت سورة الطلاق فبيَّنت مدة العدة للمطلقة الآيسة التي انقطع حيضها، وللصغيرة التي لم تحض، ثم بيَّنت حكم المسكن الذي تعتد به المطلقة، ونفقة الحمل حتى تضع، ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه، وأُجرتها عليه إن اتفق الزوجان على ذلك، وإلا فسترضع له أخرى، والنفقة في كل ذلك تابعة لحالة الزوج وقدرته، إيسارًا وإعسارًا، وبذلك لم تترك السورة شيئًا من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في مكانه، وبيَّنت حكمه، في رفق ووضوح؛ يقف الإنسان مدهوشًا أمام هذا الحشد من الأحكام، وما تبعها من تعقيبات وذكر لحقائقَ كونية كبرى؛ تُشعر القلب بأن هذا الأمر هو الإسلام كلُّه، وهو الدين كلُّه، وهو القضية التي تفصل فيها السماء، وتقف تراقب تنفيذَ الأحكام، مع أن الطلاق حالةُ هدم لا بناء، حالةُ انتهاء لا إنشاء، انتهاء لأسرة لا لدولة، الشيء الذي يوقع في الحسن أنها أضخم من إنشاء دولة!

إن دلالاتِ تضخيم هذا الأمر كبيرة، وكبيرة جدًا، تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديَّته، وانبثاقه من نبع غير بشري، إنها تدل على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي أولًا، ذلك أن الإسلام نظام أسرة، البيت فيه مثابة وسكن، تلتقي في ظله النفس مع النفس على المودة والرحمة، وفي كنفه تنبت الطفولة، وتدرج الحداثة، ومنه تمتد وشائج الرحمة، وأواصر التكافل، أحاط الإسلام الأسرة بسياج من التشريعات والتوجيهات في كل وضع من أوضاعها، وكل حالة من حالاتها، وكان قدر الله أن تكون أول خلية في الوجود البشري أسرةً، آدم وزوجه، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى، وكان الله سبحانه قادرًا على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة واحدة، ولكن قدره جرى بهذا؛ لأن الأسرة تلبي فطرة الإنسان واستعداداته، وتنمي شخصيته وفضائله، ويتلقى فيها أعمق المؤثرات في حياته.

وإن من دلالاتِ تضخيم أحكام الطلاق في السورة؛ أن النظام الإسلامي يتجه لرفع العلاقات الزوجية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله، ويدعو أبناء الأمة للزواج، ويتخذ من العلاقة الزوجية وسيلة للتطهر الروحي، والنظافة الشعورية، لا كما كان يُنظر إليها في العقائد الوثنية والديانات المحرفة، البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ومن أعظم دلالاتِ هذا التضخيم لسياق السورة واقعيةُ النظام الإسلامي في تعامله مع الحياة والنفس البشرية كما هي في فطرتها، فالإسلام الذي أحاط العلاقات الزوجية بكل الضمانات التي تكفل لها الاستقرار والاستمرار؛ لم يغفل الواقع الذي يثبت أن هناك علاقات زوجية تتهدم وتتحطم على الرغم من كل تلك الضمانات والتوجيهات، وهي حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية؛ اعترافًا بمنطق الواقع الذي لا يجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية، ويصبح الإمساك بها عبثًا لا يقوم على أساس، ومع هذا الاعتراف لا يعمد الإسلام إلى تلك العلاقة فيفصمها لأول بادرة خلاف؛ بل إنه يشد رباط الزوجية، ولا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس، ويسلك في سبيل ذلك طرقًا ووسائلَ شتى، فتراه يهتف بالرجال: ﴿**وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾، ويفتح لهم النافذة المجهولة: ﴿**فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾ فما يدريهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيرًا لا يجوز أن يفلتوه، ثم إن تعدى الحال مسألةَ الحب والكراهة إلى النشوز والنفور؛ لا يعمد إلى الطلاق، بل لا بد من محاولة يقوم بها آخرون ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ، وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً**﴾ فإن لم تجدِ هذه الوساطة؛ فالأمر إذن جد، لا تستقيم معه حياة، والاستمرار فيها محاولة فاشلة، لا يزيدها الضغط إلا فشلًا، ومن الحكمة التسليم بالواقع، وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق، ثم إن أراد أن يطلق فليس في كل لحظة يجوز الطلاق، إنما وقته وأحكامه كما جاءت بها هذه السورة.

ومن دلالات تضخيم أمر الطلاق في هذه السورة أيضًا؛ أن السورة كانت تواجه حالات واقعة في الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية، وما كانت تلاقيه المرأة؛ مما اقتضى هذا التشديد، وهذا الحشد والتفصيلات الدقيقة، التي لا تدع مجالًا للتلاعب والالتواء مع ما كان مستقرًا في النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين، ومن تفكك وفوضى في الحياة العائلية، سواء في شبه الجزيرة أو في غيرها من العالم يومذاك، الذي كان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار، وإلى المرأة كأنها شيطان

يغري بهذه القذارة، فمن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة، وبالعلاقات الزوجية إلى المستوى الطاهر، وجعل للمرأة اعتبارًا وقيمة، وحقوقًا وضمانات، فهي وليدة لا توأد، ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها، وزوجة لها حقوق ورعاية، ومطلقة لها حقوق مفصلة في هذه السورة، وفي سورة البقرة.

بعد هذا الاستطراد نستعرض الأحكام في سياق السورة، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا**﴾ [الطلاق: ١]، هذا أول حكم في السورة، يوجه الخطاب به إلى رسول الله ﷺ ﴿**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ**﴾، ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين، لا بشخصه ﷺ ﴿**إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ**﴾، وهذا النسق من التعبير يوحي بأن الأمر جدٌّ وذو بال، ينادي الله به نبيَّه ﷺ ليلقي إليه أمره فيه، كما يبلغه من وراءه ﴿**إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾ وقد روى البخاري حديثًا في معنى هذه الآية أن عبد الله بن عمر ﷺ طلق امرأةً له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ؛ فتغيظ رسول الله ﷺ، ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل»، ورواه مسلم ولفظه: «فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»، ومن ثم تعيَّن أن هناك وقتًا معينًا لإيقاع الطلاق، وهو أن تكون المرأة في حالة طهر من حيض لم يقع فيه جماع، أو أن تكون الزوجة حاملًا بيّنة الحمل، واشتراط الطهر بلا وطء؛ للتحقيق من عدم الحمل، واشتراط تبيُّن الحمل؛ ليكون الرجل على بصيرة من أمره، وهذه أول محاولة لرأب الصدع في بناء الأسرة، ومحاولة دفع المعول عن ذلك البناء، ثم قال: ﴿**وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ**﴾ حتى لا يطول الأمد على المطلقة فيضرَّ بها، ويمنعَها من الزواج بعد العدة، أو يقع النقص الذي لا يتحقق به التأكد من براءة الرحم من الحمل، وهذا الضبط الدقيق يوحي بأهمية الأمر، ومراقبة السماء له، ومطالبة أصحابه بالدقة فيه.

ثم يأتي أول تنبيه في السورة؛ بعد الوصية بتقوى الله تعالى: ﴿**لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**﴾، فلا تَخرج المطلقة من بيت مطلقها، ولا تُخرج منه؛ إلا إذا زنت فتُخرج للحد، أو نشزت على الزوج، وذلك لإتاحة الفرصة للرجعة، ولاستثارة عواطف المودة، وذكريات الحياة المشتركة، ثم يأتي الحذير الثاني في السورة ﴿**وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾

إنَّ الحارس لهذا الحكم هو الله، وأي مؤمن يتعرض لحد يحرسه الله فقد ظلم نفسه إذ عرضها لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها، ثم تأتي اللمسة الموحية، التي يلوح منها الأمل والرجاء ﴿**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً**﴾ النفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة، فتغلق عليها منافذ المستقبل، فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة، وتشعر أنها سرمدٌ، وأنها باقيةٌ، وليست هذه الحقيقة، فقدر الله دائمًا يعمل، ودائمًا يغير ويبدل، وينشئ ما لا يجول في حسبان البشر من الأحوال والأوضاع، ويريد الله لهذه الحقيقة أن تستقر في نفوس البشر؛ لتبقى أبواب الأمل في تغير الأحوال مفتوحة دائمًا، ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل، ندية بالرجاء... ﴿**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً**﴾.

ثم تأتي المرحلة الثانية ويأتي حكمها: ﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)**﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، للزوج ما دامت المطلقة لم تخرج من العدة أن يراجعها فتعود إلى عصمته بمجرد مراجعتها، وإن هو ترك العدة تمضي فبانت منه؛ لم تحلَّ له إلا بعقد جديد كالزوجة الجديدة، وفي كل حال هو مأمور بالمعروف، منهي عن المضارة بالرجعة، كأن يعمد إلى إطالة أمد العدة بمراجعتها قبل انتهائها ثم طلاقها، أو بتركها كالمعلقة لتفدي نفسها منه، وهذا ما يزال يقع كلما انحرفت النفوس عن الضامن الأول لأحكام المعاشرة والفراق وهو تقوى الله تعالى، وفي حالتي الفراق أو الرجعة تُطلب الشهادة على هذه وذاك، شهادة اثنين من العدول قطعًا للريبة، فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة؛ فتثور الشكوك، والإسلام يريد الطهارة لهذه العلاقة؛ ولذا قال: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ**﴾ ولمَّا كان المخاطبون بهذه الأحكام هو المؤمنون؛ استجاش الله الإيمان في قلوبهم للعمل بهذه الأحكام فقال: ﴿**ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾، وإذا ما خيم شبح الفقر على الزوج، وظن أنه سيقع في الضيق؛ جاءت اللمسة الحانية تقول: إن تقوى الله هي المخرج من كل ضيق في الدنيا والآخرة، وهي سبب للرزق من حيث لا يقدر، ولا ينتظر ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾، ولمَّا كان مجال الكيد واسع في مثل هذه العلاقة، وقد تؤدي محاولة اتقاء الكيد إلى الكيد؛ أرشد الله عباده إلى

التوكل عليه سبحانه، وهو كافٍ لمن يتوكل عليه، لأنه القادر القاهر، الفعال لما يريد ﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾.

لـمَّا بينت سورة البقرة مدة العدة لذات الحيض؛ بقي حكم من انقطع حيضها، والتي لم تحض لصغر أو لعلة موضعُ لَبس؛ فجاءت الآيات في هذه السورة تبين مدة عدتهما فقالت: ﴿**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)**﴾ [الطلاق: ٤، ٥]، حددت الآيات أن مدة عدة هؤلاء وهؤلاء ثلاثة أشهر؛ لاشتراكهن في عدم الحيض الذي تحسب به العدة، أما الحوامل فجعل عدتهن هي الوضع، طال الزمن بعد الطلاق أم قصر؛ لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة، فلا حاجة إلى الانتظار، ثم أعقبت السورة هذه الأحكام بلمسات وتعقيبات فقال: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ وهذا إغراء باليسر في قضية الطلاق مقابل اليسر في سائر الحياة، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور كلها ميسرة لعبد من عباده، فلا عنت ولا مشقة، ولا عسر ولا ضيقة، حتى يلقى الله تعالى، واللمسة الأخرى لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر ﴿**ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ**﴾، أنزله للمؤمنين به، فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان، ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله، ثم يعود إلى التقوى التي يدق عليها دقًا متواصلًا فيقول: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً**﴾ وقد كانت الأولى تيسيرًا للأمور، وجاءت هذه الثانية تكفيرًا للسيئات، وإعظامًا للأجر بعد التكفير.

ثم يأتي البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة في البيوت، والإنفاق في فترة العدة ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)**﴾ [الطلاق: ٦، ٧]، أمر المطلق أن يسكن مطلقته مما يجد هو من سكنى، ولا يعمد إلى مضارتها، وخص أولات الحمل بالنفقة -مع أنها تجب لكل مطلقة- لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن النفقة ببعضه دون بقيته، فأوجبها حتى الوضع، ثم فصل مسألة الرضاعة

فلم يجعلها واجبًا على الأم بلا مقابل، بل من حقها أن تنال أجرًا على رضاعته، تستعين به على حياتها، وعلى إدرار اللبن للصغير، وفي الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف في شأن هذا الوليد، حتى لا يكون فشلهما هما في حياتهما نكبة على الصغير البريء، وأما إذا تعاسرا، ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها؛ فالطفل مكفول الحقوق: ﴿**فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى**﴾ دون اعتراض من الأم، أو تعطيل لحق الطفل في الرضاعة، ولا جورَ في مقدار تلك النفقة من الرجل، ولا تعنتَ من المرأة، بل تعاون ويسر، من وسع الله رزقه ينفق عن سعة في المسكن والمعيشة والرضاعة، ومن ضُيق عليه فلا حرج عليه ﴿**لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾ والله هو المعطي، ولا يطالب أحدًا أن ينفق إلا في حدود ما آتاه، ثم تأتي لمسة الإرضاء والرجاء ﴿**سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ فالأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر؛ فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله، وأن يتجها إليه بالأمر كله، وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه.

ولمَّا انتهت السورة من تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته، وتتبعت كل أثر من آثاره؛ حتى انتهت إلى حل واضح، ولم تدع من البيت المتهدم أنقاضًا ولا غبارًا يملأ النفوس ويغشى القلوب؛ لما انتهت من ذلك ساقت العبرة الأخيرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله، ولم يتقوا، ولم يطيعوا؛ فقالت: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١)**﴾ [الطلاق: ٨ - ١١]، إن أخذ الله تعالى للقرى التي عتت عن أمره، ولم تسلم لرسله سنةٌ متكررة، توقفنا السورة على تلك السنة بعد أن تحدثت عن الطلاق وأحكامه؛ لتربط الطلاق وأحكامه بهذه السنة الكلية، ولنعي أن أمر الطلاق ليس أمرَ أُسَرٍ أو أزواج، إنما أمرُ الأمة المسلمة كلها، فهي المسؤولة عن أمر الله هذا، وعن شريعة الله كلها، وما مخالفتها لشريعة الله، أو لمنهجه الأخير في الأرض؛ إلا عتو عن أمر الله، لا يُؤاخذ به الأفراد الذين يخالفونه فقط، وإنما تُؤاخذ به القرية، أو الأمة التي تقع في المخالفة؛ لأن هذا الدين جاء ليطاع، ولينفذ كله، وليهمن على الحياة كلها، ومن عتا عن أمر الله، ولو في أمر من الأمور الشخصية؛ فقد

تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التي لا تتخلف أبدًا، وقد ذاقت القرى التي عتت عن أمر الله وبال أمرها في الدنيا، وكان عاقبة أمرها خسرًا، وفوق ذلك ينتظرها العذاب الشديد في الآخرة ﴿**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ وفي مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة؛ تهتف السورة بأولي الألباب ليتقوا الله الذي أنزل لهم الذكر فتقول: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا**﴾ ثم تجسم السورة هذا الذكر فتجعل شخصَه الكريم ﷺ هو الذكر فتقول: ﴿**رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ**﴾ وذلك بعد أن استحالت شخصيةُ رسول الله ﷺ ذكرًا، وترجمةً حية لحقيقة القرآن، وهكذا وصفته عائشة رضي الله عنها فقالت: «كان خلقه القرآن»، وفوق هذا الذكر، وهذه الهداية؛ وعدٌ بنعيم الجنات، خالدين فيها أبداً، ثم تلمس الآيات نقطة الرزق مرة أخرى، وتهون بها من رزق الدنيا الذي وعدت به سابقًا فتقول: ﴿**قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا**﴾.

وآية الختام تربط موضوع السورة بقدر الله وقدرته في المجال الكوني العريض: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢]، إن القلب ليقف وجهًا لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق، وسعة ملكه وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿**سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ فتصغرْ أمامه هذه الأرض كلُّها، فضلًا على بعض ما فيها، فضلًا على حادث من أحداثها، فضلًا على دريهمات ينفقها الزوج، أو تتنازل عنها الزوجة، وبين هذه السماوات السبع والأرضين السبع يتنزل أمر الله، فهو أمر هائل إذن، ومخالفتُه مخالفةٌ لأمرٍ تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين، ويتسامع به الملأ الأعلى، فهي مخالفة بلقاء شنعاء، لا يقدم عليها من جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات، ليخرجه من الظلمات إلى النور، والأمر الذي يتنزل بين السماوات والأرض ينشئ في قلب المؤمن عقيدةً أن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، ولا يندُّ عن علمه شيء، وإن الله المحيط بكل شيء هو الذي يأمر بهذه الأحكام التي جاءت بها السورة، وأنها أحكام موكولة إلى الضمائر التي تشعر بأن الله محيط علمه بكل شيء ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ فيحملها ذلك الشعور على الانقياد لها.

سورة التحريم

عندما جرى قدر الله تعالى أن يجعل الإسلام الرسالةَ الخاتمة، ويجعل منهجَه المنهج الأخير في الأرض، شاملًا كاملًا متكاملًا؛ جرى قدره كذلك سبحانه باختيار رسوله إنسانًا يتمثل فيه هذا المنهج بكل خصائصه وحقيقته، ويكون هذا الرسول بذاته ترجمةً كاملةً لطبيعة المنهج الأخير واتجاهه، وجعل حياته العامة والخاصة كتابًا مفتوحًا لأمته وللبشرية كلها، ليس فيها سرٌّ مخبوءٌ، ولا سترٌ مطويٌ؛ لأنه ليس في نفسه شيء خاص؛ فهو لهذا المنهج كله، فلا يختبئ شيء من حياته ﷺ، بل حياته المشهدُ المنظور لهذا المنهج، جاء ليعرضه للناس في حياته، كما جاء ليعرضه بلسانه ﷺ، وقد نقل لنا أصحابه ﷺ أدق تفصيلات حياته العامة والخاصة، فلم تبق فيها صغيرة ولا كبيرة إلا وقد نقلت لنا، إلى جانب ما نقله لنا القرآن منها.

يطالعنا صدرُ سورة التحريم على حادثة من الحوادث المتعلقة بحياة الرجل الذي كان ينهض بإنشاء أمة، وإقامة دولة، على غير مثال معروف، وعلى غير نسق مسبوق؛ يطالعنا على ما كان بين بعض أزواجه ﷺ وبعض، وعلى ما كان بينه وبينهنَّ أيضًا، ثم على ما كان من آثار لهذه الحادثة على المجتمع المسلم وقتها، وما تبعها من توجيهات للأمة بعد ذلك، ولقد تزوج رسول الله ﷺ ثنتا عشرة امرأة، عاش معهن ﷺ بشرًا رسولًا كما خلقه ربه، استمتع به وأمتعهنَّ من ذات نفسه، ومن فيض قلبه، أما حياته المادية فقد كانت في غالبها كفافًا، وقد سبق في سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة في النفقة، وما أعقب هذا الطلب من أزمة، انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة، أو المتاع والتسريح من عصمته ﷺ؛ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾

[التحريم: ١ – ٥]، وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة، منها ما رواه البخاري عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأتُ أنا وحفصة على أيَّتُنا دخل عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير، إني أجد منك ريحَ مغافير، قال: «لا، ولكني كنت أشربُ عسلًا عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحدًا»، ويبدو أن التي حدثها رسول الله ﷺ هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتآمرة معها؛ فأطلع الله رسوله ﷺ على الأمر، فعاد عليها في هذا، وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها؛ دون استقصاء لجميعه؛ تمشيًّاً مع أدبه الكريم؛ فدهشت هي وسألته: من أنبأك هذا؟ ولعله دار في خلدها أن الأخرى هي التي نبأته، ولكنه أجابها: «نبأني العليم الخبير»؛ وقد كان من جراء ما كشفه ﷺ من تآمر ومكايدات في بيته؛ أن غضب وآلى من نسائه شهرًا، وهمَّ بتطليقهنَ، ثم نزلت عليه هذه الآيات؛ فهدأ غضبُه، وعاد إلى نسائه.

ومما ورد في سبب نزول هذه الآيات ما رواه النسائي عن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشةُ وحفصةُ حتى حرَّمها على نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ**﴾ [التحريم: ١] إلى آخر الآية، وجاء في بعض الروايات أن تلك الأمة هي مارية أم ولده إبراهيم رضي الله عنها، وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذي وقع، وربما كانت هذه الثانية أقربَ إلى جو النصوص، وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدي إلى طلاق زوجات الرسول ﷺ؛ نظرًا لدقة الموضوع، وشدة حساسيته، ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادًا، وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع، ويمكن أن تحدث الآثار التي ترتبت عليها، وهي إيلاء رسول الله ﷺ من نسائه، وهمِّه بتطليقهن، الأمر الذي عدَّه أصحابه حدثًا أعظم وأطول من غزو غسان لهم –وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة العربية– وقد كانوا يتحدثون أن غسان تنحل الخيل لتغزوهم، وقد روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب ﷺ لمَّا راجعته امرأته في الحديث، وأخبرته أن نساء رسول الله ﷺ يراجعنه في الحديث، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل؛ نزل إلى ابنته حفصة فسألها عن ذلك؛ فقالت نعم، فقال لها: "وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُنَّ وَخَسِرَ، أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا لِغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ؟ لَا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا تَسْأَلِيهِ شَيْئًا، وَسَلِينِي مَا بَدَا لَكِ..."، فلمَّا وقعت هذه الحادثة، وآلى رسول الله ﷺ من نسائه وهجرهنَّ؛ جاءه

عمر وهو مغضب لا يكلم أحدًا؛ فسأله: أطلقت نساءك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «لا»، ثم أخذ عمر يحدثه ما كان قد كلَّم به حفصة رضي الله عنها؛ حتى تبسم رسول الله ﷺ.

تلك هي روايات الحادث كما جاءت به السير؛ أما القرآن فأول ما يبدأ به عتاب اللهُ لرسوله ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)**﴾، وذلك بعد أن قرر رسول الله ﷺ حرمان نفسه من العسل، أو من مارية؛ فجاء هذا العتاب يوحي بأن ما جعله الله حلالًا فلا يجوز حرمان النفس منه عمدًا وقصدًا إرضاء لأحد، وفي قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ دليل على أن هذا الحرمان يؤاخذ به العبد؛ إذا لم تتداركه مغفرة الله ورحمته، وأما اليمين التي حلفها رسول الله ﷺ؛ فقد فرض الله تعالى تحلتها، أي كفارتها التي يحل منها؛ لأنه سبحانه: ﴿**مَوْلَاكُمْ**﴾ يعرف ضعفكم فلا يوقعكم في الحرج ولا في المشقة، ويشرع لكم من الأحكام ما يناسب طاقتكم، ويصلح لكم فإنه سبحانه: ﴿**الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾.

ثم تأتي الآيات تشير إلى الحديث، ولا تذكر موضوعه ولا تفصيله؛ لأن المهم فيه هو دلالته وآثاره؛ فتقول: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا...**﴾ أطلع الله نبيَّه ﷺ على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث، الذي أسرَّه إلى بعض أزواجه، وأنه ﷺ حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه؛ ترفعًا منه ﷺ عن السرد الطويل، وتجمُّلًا منه عن الإطالة في التفصيل، وأنه أنبأها بمصدر علمه فقال: «نبأني العليم الخبير»، والإشارة هنا إلى العلم والخبرة إشارةٌ مؤثرة في حالة التآمر والمكايدات المحبوكة وراء الأستار، تردُّ السائلة إلى هذه الحقيقة التي ربما نسيتها، أو غفلت عنها، وتردُّ القلوب بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن، ثم تتوجه الآيات إلى المرأتين فتقول: ﴿**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)**﴾ وإذا ما تجاوزنا صدر الآية، ودعوة المرأتين للتوبة والعودة إلى الله تعالى؛ نجد حملةً ضخمةً هائلةً، وتهديدًا رعيبًا مخيفًا، ندرك معها عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله ﷺ؛ حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير؛ ليطيب خاطر الرسول ﷺ، ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير! ولقد كان الحادث ضخمًا في نفوس أصحاب رسول الله ﷺ أيضًا، وعدُّوه أعظمَ وأخطرَ من هجوم غسان عليهم؛ لأنهم كانوا يرون أن استقرار البيت النبوي وسلامه

أعظمُ وأكبرُ من كل شان، ثم في معرض التهديد لنساء النبي ﷺ؛ تذكر الآية صفات النساء اللواتي يمكن أن يبدلَ الله نبيَّه بهن لو طلقهن فتقول: ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**﴾، وهي الصفات التي يدعوهنَّ إليها عن طريق الإيحاء والتلميح، فالإسلام: دليله الطاعة، والقيام بأوامر الدين، والإيمان: ينبثق عن هذا الإسلام؛ حين يصح ويتكامل، والقنوت: الطاعةُ القلبية، والتوبة: الندمُ على ما وقع من معصية، وتوجهٌ إلى الطاعة، والعبادة: أداةُ الاتصال بالله، والتعبير عن العبودية له، والسياحة: التأملُ والتفكرُ في إبداع الله، وهنَّ من الثيبات ومن الأبكار، كما أن نساءَه الحاضرات ﷺ كان فيهنَّ الثيب، وفيهنَّ البكر، ولقد رضيت نفس رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآيات، واطمأن البيت الكريم بعد هذه الزلزلة، وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه، وهو تكريم لهذا البيت، ورعايةٌ تناسب دورَه في إنشاء منهج الله في الأرض، وتثبيت أركانه.

وبعد ذكر هذا الحادث وما كان له من وقع عميق في نفوس المسلمين؛ يأتي المقطع الثاني في السورة فيهيب بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير؛ ويَقُوا أنفسهم وأهليهم من النار، ثم يدعوهم إلى التوبة، ويدعو رسولَه ﷺ إلى جهاد الكفار والمنافقين؛ فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)**﴾ [التحريم: ٦، ٩]، إن المؤمن مكلف بهداية أهله، وإصلاح بيته، كما هو مكلف بهداية نفسه وإصلاح قلبه، وإن تبعتَه على نفسه وأهله ثقيلة رهيبة، وعليه أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله، يؤمن أسرته من داخلها، ويسدُّ كل ثغراتِها؛ قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدًا؛ وإلا فالنار هناك، وهو متعرض لها هو وأهله، وهي فظيعة متسعرة ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾، وعلى تلك النار ملائكة، تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون، فهم: ﴿**غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾، وعلى المؤمن أن يحول دون نفسه وأهله، قبل أن تضيع الفرصة، ولا ينفع الاعتذار، فالكفار يعتذرون وهم عليها

وقوف؛ فلا يؤبه لاعتذارهم؛ بل يقال لهم: ﴿**لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ فليس اليوم يومَ اعتذار، إنما هو يومُ الجزاء على ما كان من عمل، وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار، ثم يبين الله لعباده طريق النجاة والوقاية من هذه النار فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا...**﴾، هذا هو الطريق، توبة نصوح، تنصح القلب وتخلصه من رواسب المعاصي، تبدأ بالندم، وتنتهي بالعمل الصالح، وهي التوبة الوحيد المرجوة أن يكفر الله بها السيئات، ويدخلهم بها الجنات، في اليوم الذي يخزي فيه الكفار، ولا يخزي النبي والذين آمنوا معه، لأنهم في كرامة الله، قد جعل لهم نورًا يهتدون به في الزحام المريج، نورًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف: ﴿**نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ**﴾، وهم في رهبة الموقف وشدته يُلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله: ﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف علامة الاستجابة؛ فما ألهمهم الدعاء سبحانه؛ إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب لهم، فأين هذا من نار ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾.

على الرجل الذي أُمر أن يَقي نفسَه وأهلَه نارًا وقودها الناس والحجارة؛ أن يدرك تغير الواقع الذي يعيشه عن الواقع الذي نزلت فيه هذه الآيات، وأنَّ عليه أن يبذل جهدًا مضاعفًا عن الجهد الذي كان يبذله المسلم في الجماعة المسلمة الأولى؛ ليبني بيتًا مسلمًا، عليه أن يختار حارسةً لبيته تستمدُّ عقيدتها من الإسلام، ويضحي في سبيل ذلك بالالتماع الكاذب في المرأة، والمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع، عليه أن يختار ذاتَ الدين، التي تعينه على بناء بيت مسلم، وإنشاء قلعة مسلمة، ثم إنه يتعين على الأب والأم بعد ذلك أن يعلموا أن أبناءهم وديعةً في أيديهم، وأن عليهم أن يتوجهوا إليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أي أحد آخر، وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نارًا**﴾ حتى تقوم بعد ذلك الجماعة المسلمة، ويكون الإسلام عقيدتَها ونظامَها، وشريعتَها ومنهجَها الكامل، الذي تستقي منه كل تصوراتها، وقيام تلك الجماعة ضرورةٌ وليست نافلة؛ ليراها من يُدْعَون إليها من المجتمع الجاهلي الضال؛ ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله، إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام، حتى تنشأ الأجيال في ظله، في حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب، وقد أرشد الله نبيه ﷺ بعد أن أنشأ المحضن –الجماعة المسلمة– الذي تتم فيه الوقاية من النار إلى جهاد الكفار والمنافقين، الذين يهاجمون هذا المحضن من خارجه ومن داخله، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ فجهادهم هو الجهاد الواقي من النار،

وجزاؤهم هو الغلظة عليهم من رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين في الدنيا، ﴿**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ في الآخرة.

ثم يأتي المقطع الثالث والأخير في السورة، وكأنه التكملة المباشرة للمقطع الأول منها؛ فيتحدث عن نساء كافرات في بيوت أنبياء، ونساء مؤمنات في وسط كفار؛ فيقول: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)**﴾ [التحريم: ١٠ - ١٢]، إن المأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط، أنها كانت خيانة في الدعوة، وليست خيانة في الفراش، فامرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه، وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه، وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه! والمأثور كذلك عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة في قصره، ولا عبرة في تتبع الروايات التاريخية في تحقيق أصل امرأة فرعون هذه؛ إنما العبرة في كل ذلك إبراز مبدأ التبعة الفردية، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار، والقول لأزواج النبي ﷺ وأزواج المؤمنين كذلك: إن عليهنَّ أنفسهنَّ بعد كل شيء، فهنَّ مسؤولات عن ذواتهن، ولن يعفيَهنَّ من التبعة أنهن زوجات نبي، أو صالحٍ من المسلمين؛ إذ لا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان، وأمر الخيانة في العقيدة؛ حتى لأزواج الأنبياء، امرأة نوح، وامرأة لوط، اللتان خانتهما ﴿**وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾.

أما امرأة فرعون التي كانت تعيش في قصر أعظم ملوك الأرض يومئذ؛ فلم يصدها طوفان الكفر أن تطلب النجاة وحدها، وتتبرأ من زوجها ومن عمله، ومن القوم الظالمين؛ طالبةً إلى ربها بيتًا في الجنة ﴿**إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ استعلت بإيمانها على عرض الحياة الدنيا في أزهي صوره، في قصر فرعون أمتعُ مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، لكنها استعلت عليه كله، واعتبرته شرًّا وبلاء تستعيذ بالله منه، فصارت نموذجًا عاليًا في التجرد إلى الله سبحانه، واستحقت بذلك هذه الإشارة في كتاب الله الخالد.

﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ...**﴾ مثل للتجرد إلى الله تعالى أيضًا، منذ نشأتها كما قصها الله في سور أخرى، وذكرت سورة التحريم من طهارتها أنها: ﴿**أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**﴾ تبرئةً لها مما رمتها به يهود الفاجرة، ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا**﴾ ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام، كما قصته سورة مريم، ﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾ وامرأة فرعون ومريم نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة، يضربهما الله تعالى مثلًا لأزواج النبي ﷺ بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر السورة، وللمؤمنات من بعدُ في كل جيل.